مفاهيم إسلامية

الغزو الفكري

محمد جلال كشك

الطبعة الثانية

الناشر
الدار القومية للطباعة والنشر
القاهرة

مفاهيم
إسلامية

الغزو الفكري

محمد جلال كشك

الطبعة الثانية
الناشر الدار القومية للطباعة والنشر
القاهرة

قد كنت آثرت عينيها بهذا الحديث ..

لولا فاجعة أبكت العين .. وأدمت القلب

فعذرا يا صاحبتى .. ان اهديت حديثى لمن بكيناه معا ..

لشهيد الاسلام والعروبة : عبد السلام محمد عارف

ان موقفنا ازاء الاسلام يختلف ، لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب.ذلك أن رفض الايديولوجية الاسلامية فى بلاد مستعمرة ، يضطهد دين الأكثرية الساحقة لسكانها ، هو مجرد تظاهر بتحضر مزيف تنادى به فئة منفصلة عن الشعب غربية الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها أيدلوجية العدو المستعمر .

عمار أوزيجان
الثائر الجزائرى

خطبة الطبعة الثانية

الحمد لله ..

قال فى تنزيله الحكيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

والحمد لله صدق وعده .

شكرناه فزادنا .

ما أردنا الا مرضاته ، والذود بلساننا عن دينه ، والأمة التى شرفها ، جل وعز ، بأن سماها خير أمة أخرجت للناس ، فشاءت ارادته سبحانه وتعالى ، أن يعجل لنا المثوبة فى الدنيا بشرى بثوابه فى الآخرة ... ان شاء الله .

وأى مثوبة أجل وأكبر من أن تنفد الطبعة الأولى ونشرع فى طبع الثانية ، للون من الفكر لا يكتب عنه محترفو النقد حرفا واحدا .. بل وترفض بعض الصحف أن تعلن عنه ولو بالأجر . وهى تعلن لمؤسسات تعمل لحساب الاستعمار ، ولدول تكفر بالله ورسوله وملائكته واليوم الآخر !.

الحمد لله ..

اخترنا طريقا أوله الايمان به ، والعـــزة للمؤمنين ؛ وآخره جنات عدن .. وما وعد الرحمن ..

اللهم رضينا بدايته .. فأحسن ختامه ..

وقد كنت قد وعدت فى كتابى « الماركسية والغزو الفكرى » أن أضمن الطبعة الثانية من « الغزو الفكرى » ما قاله البعض حول الطبعة الأولى ورأيى فيما قالوه ..

ولكنى وجدت نفسى متعجلا اصدار هذه الطبعة ، بغير تعديل كبير ، الا ما جرى به القلم هنا أو هنـــاك .. لنفس السبب الذى دفعنى الى التعجل فى اصدار الطبعة الأولى .. « وكان الانســـان عجولا » .

دفعنى الى ذلك الموجة الاستعمارية التى تتخذ شـــكل هجوم وحشى للصليبية الغربية ضدنا فى أفريقيا ..

لقد تخطوا مرحلة التآمر والتبشير الى الهجوم وحرب الابادة ضـد المسلمين والعرب .. وما هى الا سحابة صيف ، وان حسبها « الدجال » معجزة .. فالذين لم يقهروا الاسلام ولهم فى أفريقيا جيوش وقواعد وانتداب ووصاية .. أتراهم قادرين اليـــوم وقد جلت جيوشهم ، واستبدلوا بنواب الملكة أجراءها وعملاءها ؟ ..

أتراهم قادرين وقد قامت قاهرة ناصر •• تحمى العـــروبة وتذود عن الاسلام ؟!••

اللهم لا ••

غير أن هذا الهجوم الغادر يفرض علينا أن نبادر فندفعه بكل ما نطيق ، فليس فى ديننـــا : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنـــا قاعدون » ! ••

والذى يجرى فى أفريقيا سيطرق أبوابنا لو تركناه يجرى ، ونعمنا بأمن مزعوم خلف الباب الموصد ••

وما كان الاسلام بدعوة حرب •• بل رسالة سلام •• غير أننا لا نستطيع أن نقف مكتوفى الأيدى••وهم يذبحون كل من يحمل لقب حاج •• ويسقطون كل من يمت للعـــروبة بسبب ، أو يرنو لقاهرة ناصر ملتمسا سبيلا أو هدى ••

لذلك تعجلت صدور طبعتنا هذه •• ولعلى أردت أن أقول :

« من المؤمنين رجال صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ••

القاهرة

ذو الحجة ١٣٨٥

مارس ١٩٦٦

أما بعد ..

فقد كنت كتبت كلامى هذا .. ودفعت به الى المطبعة ، كعادتى فى كتابة المقدمة ، بعد أن تفرغ المطبعة من جمع الكتاب .

وكنت قد انتويت أن أقتصر على شكر المولى عز وجل .. فاذا باعلانات تصدر عن كتاب « لويس عوض » على هامش الغفران .. فقلت على عادة أسلافى ، فرسان العروبة الأماجد : « هذا رزق ساقه الله الينا » .

وسارعت بشراء الكتاب .. حتى يصبح التوزيع خمسة عشر ألفا ونسخة .. هى تلك التى اشتريتها أنا !

ورأيت بالكتاب دعوة للنزال .. فقلت : « لا يأبى الكرامة الا لئيم !

ولست أنوى فى هذه الصفحات أن أناقش ما جاء فيه حول أبى العلاء المعرى .. وانى لفاعل ، ولكن ليس فى هذا الموضع ، ولا فى هذه المرة ..

حسبى أن أناقش ما استعرض فى المقدمة ، وكأنى به قد تمثل قول أبى الطيب :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ناسيا .. أننا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : « سواسية كأسنان المشط .. يسعى بذمتهم أدناهم » .

وانه من تقاليدنا فى الرد على رسائل قيصر ، أن يستدعى أمير المؤمنين أصغر من بالباب من الكتاب فيفحم به قيصر •• اذ باسم أمة خالدة يتكلم ، وعن قلب وعى الحكمة ينطبق••والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه •• وشهد الله أن قلبى مسلم ، ولسانى عربى •• وبهما أقهر العالم كله •

تحدث « لويس عوض » عن نفسه فى مقدمة كتابه هذا ، فتحدث عن الذين هاجموه •• وذكرنى من بينهم •• زاعما أننى ألفت كتابا عنه •• هو كتابنا هذا •

والحق غير ما قال •• والحق ما تنبأ وما تمنى لنفسه •• اذ أن كتابنا هذا قد أفرد له فصلا ضمن من تناولهم من طلائع الغزو الفكرى •• أما هو فسنخصص له كتابا مستقلا هو كتابنا القادم باذن الله •• حيث نناقش فيه تلك الفرية التى زعمها فى محاضرات بمعهد الدراسات العربية ، عندما زعم أن لغة العرب لا تتضمن لفظة الحرية، وأن تاريخ العرب وحكمهم لم يعرف الرجل الحر•• الا بمعنى غير الرقيق •• واننا تعلمنا الحرية من أوروبا •• وكل صبى على أرض العروبة يجب أن يعلم أننا قد فقدنا الحرية على يد أوروبا •• وانتزعناها انتزاعا من أوروبا هذه •

هذا هو موضوع كتابى القادم ان أراد الله لى أن أتمه •

وقال « لويس عوض » عن الذين هاجموه •• « انهم تناولوا بالنقد موقفى (أى موقف لويس عوض والعياذ بالله !) القديم

من مشكلة الازدواج اللغوى ، وموقفى القديم الجديد ، من عمود الشعر العربى التقليدى ، ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى ابان الحملة الفرنسية على مصر ، وموقفى من تاريخنا القومى والروحى ابان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة ، ثم بعض اجتهاداتى عن ابن خلدون ، وأخيرا ، وليس آخرا (يقول الدكتور لويس عوض ، المستشار الثقافى للأهرام بنص حروفه كما هو منشور فى كتاب الهلال العدد ١٨١) يقول : وأخيرا وليس آخرا، موقفى من السياسة ، وهو ما عجزت وعجز الناس عن فهمه ، لأنى لا أكتب فى السياسة ، ولا سبيل الى معرفة آرائى فيها الا لمن أوتى العلم اللدنى والقدرة على التفتيش فى ضمائر الناس وأفئدتهم » [١] .

لا بد من وقفة ..

كبير النقاد .. من يكتب الخطابات المفتوحة .. والأخرى التى لا نعلمها .. لرجال الفكر ، وكبار المسئولين عن الثقافة .. يوجههم وينصحهم ، ويشير عليهم ويرشدهم الى من وما هو رجعى ، ومن وما هو تقدمى .. الذى يقسم الناس مذاهب ومدارس ، وينصب أمراء فى شتى وجوه ثقافتنا .. يعلن على رؤوس الأشهاد ، أنه لا يكتب فى السياسة .. ويفتخر بأن معرفة رأيه السياسى تحتاج الى ضارب رمل ، أو الى صاحب وحى لديه من العلم اللدنى ، وما أوتى الخضر عليه السلام ، حتى يمكنه الكشف عن «المستخبى» فى قلب « لويس عوض » .

(١) ص ٨ .

وهذا السر ..

هو رأيه السياسى !

يا عجبا .. ! أى سر تخفى يا رهين المحبسين ؟!

المستشـــار الثقافى لأكبر صحيفة فى دولة اشتراكية ، أول ما يلتزم الناس فيها ، يلتزمون سياسيا .. هذا المستشار يعلن انه قد اعتزل السياسة .

لمـــاذا ؟

ما الذى يريبك ؟

وما الذى يصدك عن السياسة ؟!

وكيف تدير الثقافة فى بلد ملتزم .. وأنت تخفى حقيقــة رأيك السياسى ؟

وهل ثمة من يصدق أنك تستطيع حقا أن تقول رأيك فى الازدواج اللغوى ، وعمــود الشــعر ، وأن يكون لك موقف من تاريخنا القــومى والروحى .. الخ دون أن تكتب فى الســياسة ، ودون أن يعرف رأيك السياسى الا من لديه علم لدنى ؟

أحقا يمكن فصـــل الفكر والثقافة والتــاريخ والأدب عن الســـياسة ؟! أيمكن أن يتصــدى لقضــية فكرية من لا يكتب فى السياسة ، ومن لا سبيل الى معرفة رأيه السياسى ؟!

اللهم فاشهد أننا نعرف .. وأن ليس فى الأمر خبىء .. ولا خديعة ، بل لعله يتمثل قول معاوية : « من تخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته » .

اللهم فاشهد أننا لم نخدع ولم نتخادع .. ولو قلنا ما نعرف، لصاحوا بنا : هذا استعداء للشرطة !

أيصح أن يتباهى مثله بأنه قد اعتزل السياسة ، وأنه يطوى عن الناس آراءه فيها ، ويحتفظ بها فى حرز حريز ، مطمئنا الى أن الوحى قد رفع ، واستأثر الله بعلم الغيب .

أمثل هذا يستشار ؟!

ما علينا ..

نعود لما بيننا وبينه .. نعود لحديث الابل ، فللبيت رب يحميه.

يقول ان الاتهامات التى وجهت اليه ، لو صدق أقلها ، لاستوجبت « نبذى ـ (نبذ لويس عوض) من صفوف الأمة العربية من الخليج الى المحيط » .

رضينا .. وعلى حد قول أمير المؤمنين : «نفعل ان شاء الله !»

فماذا قلنا .. وبماذا نتهمه ؟ !

دعنا من حيرة البرية فيه ، بين اتهامه باليسارية.. واليمينية.. فما هى الا أسماء سميتموها .. وفى كتابى : « الماركسية والغزو

ـرى » أوضحت هذه القضية بما لا يحتاج لمزيد من الشرح ••
أقول باختصار شديد ـ اننا نواجه عدوا واحدا وحربا أبدية ،
ما اختلفت الأسماء ، وتعددت الفرق والمذاهب •• وانى أنظر
رضا عن النفس ، لصدق تحليلى ، عندما أرى غيرة لويس عوض
الشيوعية !

انى أتهم « لويس عوض » انه يضع بداية خاطئة ومشوهة
فاحنا القومى ، عندما يجعل المعلم يعقوب ، بداية للقومية المصرية،
لمعلم يعقوب ، عميل اشتغل لحساب المماليك ، ثم لحساب المحتل
رنسى ، وكون فيلقا لضرب الشعب وتحطيم ثورته ، ونهب أمواله
سلمها للمحتل الفرنسى •

الدكتور يرى أن الحملة الفرنسية هى بداية تاريخنا القومى
حررنا ، ومن ثم فالمتعاون معها كان يخدم التطور ، ويقف الى
انب مصر !

ونحن نرى أن الحملة الفرنسية كانت بداية الغزو الاستعمارى
ـربى للوطن العـربى •• وان أبطال تاريخنـا هم الذين قاوموا
لحملة الفرنسية ، وثاروا ضد نابليون ، وقتلوا كليبر ، وألقوا الى
لأرض فى ازدراء شارة فرنسا ، المثلثة الألوان •• لأنها ان كانت
نى فى أوروبا رمزا للحرية ، فهى تعنى فى الشرق صك العمالة
التبعية للاستعمار •

وأى اجتهاد حققه لويس عوض فى قضية المعلم يعقوب ؟!••

ان هذه الفكرة قد عالجها صبحي وحيده منذ أكثر من عشرين عاما، واقتبستها أنا منه في كتابي الأول منذ عشر سنوات لأعود بعد ذلك فأصحح موقفي وأصحح معلوماتي باجتهاد يسير ..

ولكن لويس عوض ينقل فكرة صبحي وحيده .. فأين الاجتهاد ؟! الاجتهاد هو في تزييف طابع الحملة الفرنسية ، في ادعاء أن بيانات نابليون هي وثائق تحرير الشعب المصري .. في خلع الألفاظ الضخمة على هذه المنشورات الدعائية التافهة التي حاول نابليون عبثا أن يغرر بها بالمصريين !

هذه البيانات التي يسميها لويس عوض دستورا وميثاقا ويصفها « الن مورهيد » بكل بساطة ووضوح بقوله : « وكان هذا البيان ــ على كل حال ــ من اعمال الرياء والخديعة مع المبالغة والاسفاف الخارق في النفاق » ويصف بصدق كيف قابل المصريون هذه السخافات بقوله « واما حديث الفرنسيين الثوري عن الحرية والاخاء والمساواة ، فلم يكن في نظر المصريين الا شقشقة لسان . وتلك حقيقة كان على « بونابرت » أن يتعلمها عمليا على يد المصريين » .

هذا ما يعلمه الغرب لأبنائه فيما يكتبه لهم .. يعلمهم الحقيقة .. لأن الحضارات لا تبنى الا على العلم .. أما صبيته الذين يرسلهم لنا .. فيعلمون ان نابليون كان يريد اقامة حكم قومي ونيابي ودستوري .. الخ !

والدكتور « لويس عوض » اجتهد في موضوع الحرية ، فاكتشف ان العرب لم يعرفوها لفظا ولا معنى ! •• واننا تعلمنا الحرية من أوروبا ••• وقبل القرن التاسع عشر لم تقم ثورة واحدة ترفع شعار الحرية •

ونحن نرى ان الحضارة الاسلامية ، والعربية منها بالذات ، قد مارست الحرية كاحدى الوظائف الطبيعية ، وأن الثورات اذا كانت قد رفعت شعار مقاومة الظلم ، فذلك انطلاقا من أن الأساس هو : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » •

فالأصل هو الحرية ، والوضع الشاذ هو ظلم الحاكم بخروجه عن هذا المبدأ •

وحضارتنا لا تفرق بين ما هو حق وما هو عدل •• فما هو حق هو عدل ••

وفي موضوع أبي العلاء المعري بالذات ، لنا أكثر من اتهام، حسبنا أن نستعرضها تاركين النقاش والتفصيل لحديث آخر ••

هو يزعم أننا المحافظين •• يفزعنا فتح باب الاجتهاد في دراسة التراث •

لماذا ؟ !

هل هو أول من اجتهد أو فسر ••؟!

مرحبا بفتح باب الاجتهاد •• بل وخلعه خلعا •• شرط أن يتقبل المجتهد فى نسبة كل تراثنا وكل عبقريات أمتنا الى جذور لاتينية ويونانية •• شرط أن يتقبل اجتهادنا فى تفنيد رأيه •• هذا هو كل ما نطالب به ، ولا معنى للبس مسوح الشهداء ، والظهور بمظهر الذى يتعرض للارهاب ؟!

أى ارهاب ؟! •• وهو يؤلف عن المعرى ، فينسب عبقريته للاحتلال الصليبى ، ولأمور لقنها له راهب بدير الفاروس ، بل ويتهم المعرى بأنه كان مواليا للاحتلال الصليبى •• ويتهم بنى حمدان بالعمالة للاحتلال الرومى •• وكلنا نعرف أن أبا فراس فارس بنى حمدان ، قد صنع من الغبار الذى تجمع فوق جسده الشريف •• خلال غزواته ضد الروم ، لبنة (أى دبشة يا دكتور) أوصى بأن يوسد رأسه فوقها فى قبره ، لتكون حجته أمام الملكين بجهاده فى سبيل الله ضد الروم •

ثم يأتى « لويس عوض » فينسب آل حمدان للعمالة والخيانة وموالاة الروم ، ويطبع هذا وينشره ويوزع منه كما أخبره صديقه خمسة عشر ألف نسخة •• ثم هو مستشار ثقافى يدعى انه يغلق ويفتح •• فأى اضطهاد وأى ارهاب ••أن يرد عليه بالحجة والمنطق فى مجالات يشهد هو انها لا توزع ولا تقرأ •

طب علينا ان كنت صادقا •• وأكتمها ان لم تكن •

افتحوا باب الاجتهاد .. ولكن اذا اقتلعتكم الرياح فلا تجأروا بالشكوى .

ان الذى يخشى فتح باب الاجتهاد ؟ .. وأى متعقدات ستتزعزع ؟ أترديد قمامة الفكر الغربى ، يزعزع معتقداتنا ، ويخيب آمالنا فى التراث ؟

لا .. انت والله أهون من ذلك ..

ان هذا الفتح الذى حاولته ، قد أثمر ـ والحمد لله ـ رد فعل كله خير وبركة ، وها هى المقالات تكتب فى الاشادة بتراثنا.. والاكتشافات تترى ، لعبقرية مفكرينا .

وكتابنا التقدميون الأفاضل ينقلون لنا كل يوم أنباء اهتمام الاتحاد السوفيتى بالتراث العربى والاسلامى ، واجتهاد الروس فى كشف روائعه ، وعرفنا منهم ان ابن خلدون قد طبع بالروسية أكثر من طبعة .. وان تاريخ الطبرى ، تجرى عليه الدراسات ، على أعلى مستوى ، وتكتشف وثائق جديدة فى المقاطعات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى تثبت صدق دراساته ودقة معلوماته .

وثبت ان ماركس قد استعار نظرية فائض القيمة من ابن خلدون .. ولو قلناها نحن ، لضحكوا فى كمهم ، ونظروا الينا فى أسى لأننا نبحث فى الكتب الصفراء .

وفى هذه الايام يدور لغط وصياح كصياح الدجاج فى

استعراضاتها أمام الديكة ، حول كتاب لمؤلف يهودى ، اكتشف فيه ان الاسلام يتنافى مع الرأسمالية •• وعندما طرحت هذه الفكرة فى مقال لى بمجلة الرسالة منذ أكثر من عام ، وقلت فيها انه يبدو أن دورة التاريخ كانت تحتم تخلفنا فى مرحلة النظام الرأسمالى ، لأن الخلق الاسلامى يتنافى مع خصائص الحضارة الرأسمالية ، ليس فينا الايمان بالطبقية ، ليس عندنا هذا التقديس لحق الملكية ، ليس فى حضارتنا تقسيم العالم الى دول صناعية ودول منتجة للخامات، لاتعرف حضارتنا بناء ثراء دولة على حساب دولة أخرى•

لما قلت ذلك منذ أكثر من عام •• اذا بهم كالذى يتخبطه الشيطان من المس !

مرحبا بفتح باب الاجتهاد ، ان كان قد أغلق يوما ، لقد أغلق باب الاجتهاد لاختفاء المجتهدين واقتحامات المتسورين للأبواب اليوم ليست اجتهادا ، بل عبث يجب أن يضرب على يد فاعليه •• لا باستعداء الشرطة كما يحلو لهم أن يتظاهروا •• فشرطتنا والحمد لله لا تتدخل فى الفكر •• ولكن بفضح جهلهم ، وتبين عدوانهم على مقومات الأمة •

ان من يغلق باب الاجتهاد •• فقد خاصم رسول الله •• القائل : « للمجتهد ان أخطأ أجر وان أصاب أجران » •• هل بعد ذلك تحريض على التفكير ؟!

لننظر اذن ما الذى اجتهده هذا ..

اجتهد لويس عوض في شأن أبى العلاء وخرج باجتهاد ملخصه ان أبا العلاء المعرى هو ثمرة الحروب الصليبية ، ثمرة الصراع الفكرى ، العقائدى ، الذى ساد المنطقة بفعل الاحتلال الصليبى ، وتبادل مدن حلب وانطاكية واللاذقية بين المحتلين الصليبيين والمسلمين .

يقول المجتهد : « فاذا ذكرنا أن المعرى انما ولد مع مولد الحروب الصليبية وعاش حياته كلها فى غمارها ، واذا ذكرنا أن اهتمامات الرجل الأولى كانت اهتمامات فلسفية تتصل بالعقائد وبحرب العقائد التى دارت رحاها ، ليس فقط فى عصره ، وليس فقط فى بلاده ، ولكن فى صميم بلدته ، وعلى بعد أميال معدودة منه ــ تكشفت لنا ضرورة وضوح الصورة التاريخية التى برز فيها هذا الرجل العظيم وبرز فيها عمله العظيم» (١)

والمعرى كما يرى المجتهد هو ثمرة الفكر اليونانى الذى درسه على يد هؤلاء الصليبيين الذين كانوا يحتلون حلب (فحلب اذن قد سقطت فى يد الروم احدى عشرة سنة قبل مولد أبى العلاء المعرى فى ٩٧٣ م ، ٣٦٣ هـ .) وكان يتردد عليها ويدرس هناك فى ظل احتلالهم ، وفلسفته هى ثمرة تعاليم أو أسرار لقنها له راهب

(١) ص ٦٥ من كتاب الهلال ، الذى يوزع (١٥) ألف نسخة اذا ألف فيه لويس عوض ، بشهادة صديقه السيد مصطفى بهجت بدوى .

فى دير الفاروس ، علمه هذه الأسرار فى صباه فعاشت معه الى أن أخرجت روائعه •• ويجتهد لويس فيؤرخ ان هـــذا الذى لقنه الراهب لفخر العقل العربى هو كتب الفلسفة اليونانية وآدابهـا فى لغتها الأصلية •

يقول : « وحين نقرأ عن المعرى انه درس بدير فى اللاذقيـة على راهب من الرهبان علوم القدماء ، أليس من حقنا ان نستخلص ان علوم القدماء هذه التى كان يحفظها ويعلمها رهبان الروم فى أديرتهم لم تكن سوى الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية بصـفة خاصة » •

وأى صبى من صبيان فيكتوريا •• كوليج يعرف أن الأديرة فى تلك الحقبة كانت تعتبر الفلسفة اليونانيـة والآداب اليونانية ، فكرا وثنيا تحرم قراءته فضلا عن تدريسه •

أصحيح أن ديرا مسيحيا فى القرن العاشر الميـلادى ، كان يدرس باللغات الأصلية قصص هوميروس وارسطوفانيس وما فيها من تصارع وتسافد الألهة ! •• أهذا يتفق مع التزمت المسيحى فى هذا الوقت ، والتشدد فى عداء الوثنية •• لقد كانوا يلقبون المسلمين بالوثنيين••ونشأت من الاتصال بالمسلمين حركة تحطيم الأيقونات؟!

أم يجب أن نفترض وجود دير شاذ به راهب متشكك أو حتى ملحد ، وهذا الراهب قـد أوتى من الحظ ما جعله يحتفظ

بكتب آداب وفلسفة اليونان بلغتها الأصلية ، وأنه أوتى من الفراسة ما جعله يتوسم فى طفل أعمى من أبناء المسلمين عبقرية خاصة ، فتلا عليه آداب وفلسفة اليونان (فى كم من الزمن لا نعلم) .. وحفظها الطفل ، وعاشت معه الى أن أخرجت روائعه ؟

أهذا اجتهاد ؟! .. أمن أجل هذا نفتح باب الاجتهاد ؟!

ثم يمضى لويس عوض فى اجتهاده فيرى أن أزمة المثقفين فى عصر أبى العلاء المعرى (ولا بد فى كل عصر من أزمة للمثقفين) هى الاختيار بين الحرية الفكرية فى ظل الحماية الصليبية ، بما يفرضه الاحتلال الصليبى من تفكك سياسى ، وقيام نظام مدن على الطراز الاغريقى ، تحت الحماية الأجنبية الصليبية ، فى مدن الشام .. وبين الوحدة والتحرر تقدمها مصر (الفاطمية) ومعها القضاء على حرية الفكر .

يقول : « هذا اذن هو المأزق الذى دخل فيه العالم الاسلامى فى المشرق فى زمن المعرى وما قبله بقليل ، وما بعده بقليل ، أيام الحروب الصليبية البيزنطية فى القرنين العاشر والحادى عشر . كان عليه أن يختار بين حضارة مدن مثقفة تحترم العلم والفكر والعقل وتضطرب بالرياضة الروحانية أو العقلانية مثل حلب وانطاكية والبصرة وبغداد ، ولكنها ضعيفة ومفككة لا تملك القوة الكافية للدفاع عن نفسها أمام الغزاة ، ومن باب أولى لا تملك القوة الكافية

للدفاع عن العالم الاسلامى كله ، وبين حضارة الفاطميين التى كانت تملك القوة الكافية لرد خطر بيزنطة والصليبيين ، ولكنها رغم قوتها كانت معادية للثقافة والفكر والتراث العقلى الانسانى والتواصل الحضارى بين الشعوب بغض النظر عن علاقاتها السياسية » .

ويصل لويس عوض عبر فتح باب الاجتهاد ، الى أن أبا العلاء المعرى وجيله من المثقفين قد اختاروا حرية الفكر فى مدون الشام تحت الحماية الاجنبية، بل ووالوا الأجنبى المحتل ، وكرهوا الوحدة مع مصر ، وما تقدمه من تحرر واستقلال ثمنه حرية الفكر التى تقضى عليها مصر .. ويوشك أن يقول انهم فتحوا مجلة اسمها حوار ! .

يقول : « وفى اعتقادى ان المعرى والمثقفين العرب فى زمانه من أمثال أبى الفرج الزهرجى وعامة من تعلقوا ببلاط الحمدانية ومن شاكلهم من مهادنى بيزنطة خرجوا من هذا المأزق باختيار الثقافة على حساب القوة والاستقلال السياسى .. فقدموا الجزئى على الكلى وقدموا العقل على الحياة » (٨٢) .

القضية كما ترى خطيرة ، وباب الاجتهاد قد فتح على مصراعيه ــ أستغفر الله ــ بل اقتلع من أساسه واحتطب .

وما كانت هذه المقدمة لتتسع لنرد على ذلك كله .. حسبنا أن نقول بعض حقائق ..

المعرى مات قبل الحرب الصليبية بأربعين سنة !!

أى والله •• رغم رقم توزيع كتبه المرتفع كما يقول له أصدقاؤه !

وصحيح أن باب الاجتهاد قد فتح •• وسامها كل مفلس •• ولكن شباك الاجتهاد نفسه لا يستطيع أن يغير هذه الحقيقة ، وهى ان الحروب الصليبية قد بدأت فى سنة ١٠٩٧ والمعرى مات فى سنة ١٠٥٧ !

أما الاجتهاد أو الاحتيال على هذه الصخرة التاريخية ، بالزعم ان الحرب مع الروم كانت تمهيدا للحروب الصليبية ، فليس فى الحرب ضد الروم ظاهرة خاصة تستحق أن يكون لها نتائج خاصة •• لأن الحرب بين المسلمين والروم نشبت منذ غزوة تبوك ، أى قبل مولد المعرى بأربعة قرون ! •• وهى لم تنقطع أبدا ، حتى كان هارون الرشيد يوصف بأنه يغزو الروم عاما ويحج عاما آخر •

والروم هجموا على المسلمين فى عهد المعتصم ، وصاحت امرأة مسلمة •• وامعتصماه ! •• فوضع أمير المؤمنين كأسا كانت بيده•• ولم يكمل شربها حتى غزا عمورية ، وقال أبو تمام خالدته :

السيف أصدق أنباء من الكتب ••

وفى القصيدة من الشتائم العقائدية ما فيها ••

فلماذا لم يظهر أبو العلاء طوال قرون الحرب والسلم بين المسلمين والروم وظهر فى هذه الفترة بالذات ؟

وأى تصور ساذج لمعنى حرب العقائد .. هل كتابة قصيدة شعر والرد عليها يسمى حرب العقائد ؟! هل قول أبى العلاء :

أعباد المسيح يخاف صحبى وهم عباد من خلق المسيحا

يصح تسميته بحوار عقائدى ؟! ..

لا .. هذا تعليق أو قفشة جميلة .

ولكن حرب العقائد شيء مختلف تماما ، ومأساة الدكتور أنه يستخدم كلمات كبيرة فى وصف ما لا وجود له الا فى رأسه .. كأن يصف تغرير نابليون الفاشل بالمصريين بأنه « الميثاق » أو أن يسمى أفعاله لمسماة ببلوتولاند .. شعرا ..

حتى الحرب الصليبية الحقيقية ، لا تلك المزيفة التى أشعلها لويس عوض ليثبت صحة نظريته ولو احترق العالم ! .. حتى الحرب الصليبية[1] الحقيقية لم تكن حرب عقائد كما يجب أن نستخدم هذا التعبير .. فهى حرب يشنها عقائديون — ان صح التعبير — ولكن سلاحها السيف والمنجنيق والنفط !..فلا الصليبيون تمكنوا من تنصير مسلم واحد ، ولا الصليبيون الذين عاشوا بيننا قرابة قرنين ، قد عادوا مسلمين الى أوروبا .

حقا لقد تمت عملية تأثير غاية فى الخطورة ، ولكنها بعكس

(١) الغزو الصليبى من شأنه أن يخلق عصبية دينية ، وجمودا فكريا ، لا تفتحا . والتفتح العقلى والتشكك والجدل الفلسفى ، كان ثمرة الاطمئنان والاستقرار ، لا الحرب الشعواء .

ما يروج الدكتور ، والحق ان بذور النهضة الحديثة فى أوروبا قد عادت مع هؤلاء الصليبيين •• انهم لم يتعلموا من المسلمين •• فقط •• عادة الاستحمام ، بل تعلموا من المسلمين الكثير •• ولعله ليس جديدا أن نقول ان البروتستنتية ـ أضخم اصلاح دينى فى أوروبا ـ كان احدى ثمرات الحروب الصليبية •

والقول بأننا قدمنا لأوروبا ، وأثرنا فى الصليبيين ، ليس انتشاء بخمرة الأسلاف •• بل يرجع لسبب طبيعى جدا ، هو اننا كنا فعلا الأكثر حضارة فى هذا الوقت •

فحتى لو كانت العلوم اليونانية هى خاتم الملك ، الذى يحمله يحتكر الثقافة ، فقد كان هذا الخاتم معنا فى هذه الفترة ، كنا نحن المرجع الوحيد المعتمد للفكر اليونانى •• ودع « عوض » من الاضافات الرائعة والتطوير العبقرى الذى حققه علماء وفلاسفة المسلمين ••

ولكن الدكتور يبدأ بفرضيات ، ويطوع كل الحقائق لاثبات نظريته أو فرضيته مهما كان فى ذلك من تجن على الحقيقة •

وأوضح مثال علىذلك حكاية تعديل تاريخ الحروب الصليبية والسقطة الشهيرة التى حرص على اخفائها فى كتابه هذا لكى لايتأثر التوزيع •• وما كنا نتوقع أن تواتيه الشجاعة لكى يذكرها أو يشير اليها أو يفسرها تفسيرا مقنعا غير التفسير الساذج الذى ينسبها لخطأ مطبعى •• وهى أبعد ما تكون عنه •

وهى سقطة جديرة بأن تذكر ويعاد التذكير بها •• ولو كان

في المجال متسع لحللنا هذه السقطة وما كشفت عنه من زيف في واقعنا الثقافي •• ومن تلاميذ لا يقرأون ، بل من متجاورين في نفس الصفحة لا يقرأ بعضهم لبعض ولا يصححون ما يخطيء فيه بعضهم حتى أتى التصويب من خارج دائرة المجتهدين والمؤمنين بهم والعاملين معهم !

وحكاية السقطة الشهيرة ••

ان الدكتور انطلاقا وتعزيزا لنظريته بأن أبا العلاء المعرى هو ثمرة الصراع العقائدى ، وثمرة احتلال الصليبيين لمدينة حلب ، وتبادلها بين المسلمين والصليبيين •

فهو القائل « ولهذا أهمية خاصة لأن معرة النعمان وهى بلدة المعرى لا تبعد عن حلب الا أميالا قليلة تبلغ نحو الثمانين • ولأن حلب كانت المعهد الأول الذى تعلم فيه المعرى صبيا ، ولأن حلب كانت طول زمان المعرى مركزا للصراع السياسى والدينى العنيف الذى انعكس فى كثير من أدب المعرى (ص ٦٧) •

أراد الدكتور لويس عوض أن يطرح حجة دامغة على صدق نظريته ، فصدر صحيفة الأهرام التى نشر فيها بحثه ببيت شعر يقول :

صليت جمرة الهجير نهارا ثم باتت تغص بالصلبان

الصلبان جمع صليب •• وكتب تحته بخط يده « المعرى فى وصف مدينة حلب » •

والبيت على هذا النحو واضح المعنى ، واضح الدلالة ••

مدينة حلب صليت جمرة الهجير نهارا .. (ودعنا من توهم ان المعرى يصف صباحها الاسلامى بجمرة الهجير ! .. ولكنه لا يستغرب من صاحب نظرية ان المعرى وجيله كانوا يفضلون الاحتلال الصليبى على الاستقلال والقوة يقدمهما الحكم الاسلامى المصرى) .. ثم جاء الليل واحتل الصليبيون مدينة حلب فباتت تغص بالصلبان (جمع صليب) فى رايات الجند وخوذاتهم !

اذن صحت الرؤيا .

ولكن .. بيت الشعر ليس كما رواه ..

فهو :

صليت جمرة الهجير نهارا   ثم باتت تغص بالصليان

بالياء .. ذات النقطتين التحتيتين .. وهو اسم نبات شهى للابل .. والبيت لأبى العلاء المعرى يصف ناقته التى شقيت بالنهار وهى راحلة الى أن جاءها الليل بأطايب الطعام وهو نبات الصليان !

هل نقول ان الدكتور خطف البيت خطفا وبنى عليه نظريته؟! أهكذا يكون الاجتهاد ؟ أم نقول ان الدكتور يستهتر بجمهوره ، يستهتر بتلاميذه ، يستهتر بالجو الثقافى كله ، فيدلس عليه بيتا ويلفق له مناسبة ، ويستخرج منه نظرية ..

ان أى مصدر نشر فيه هذا البيت قد كتب تحته الشرح وفيه شرح كلمة الصليان وقوله .. فى وصف الناقة .

أيكتشف الدكتور هذا الكشف فلا يكلف نفسه حتى قراءة بيت قبله أو بعده ؟!

أليس من حقنا أن نرفض هذا الاجتهاد ؟!

وأن نأسى على مثله مجتهـــدا ، وعلى تلاميـذ يقـرأون له فيصدقون ، وعلى حركة ثقافية هو ميزانها وقاضيها !

المعرى قرأ التراث اليونانى ؟! •

يتمسكن الدكتور فى بؤس حقيقى،ويقول ، أو يدع تلامذته يقولون: هل كان كل جريمتى أننى قلت أن المعرى قد درس التراث اليونانى (ومجمل هذا الكلام انى ارتكبت اثما عظيما وتطاولت على حضارة العرب حين ذهبت الى « ترجيح » ان المعرى كان « مطلعا » على تراث اليونان) •

بمن يغرر هذا الدكتور ؟!

نعم ! ارتكبت اثما عظيما •• ان كان ذلك هو كل ما قصـدت اليه من كتابك هذا الذى كان مقالات فى أوسع الصحف المصرية انتشارا •• وأى اثم أكبر من أن تزعم ان هـذه البديهية هى التى أتعبت نفسك فى اثباتها !••

ترجح ؟!••

لا يا سـيدى ـ عافاك الله ـ نحن نجزم ونقطـع ونوقن ان أبا العـلاء المعرى كان دارســا متفقها ، لا « مطلعا » على التراث اليونانى ••

فالذى ينكر على المعرى اطلاعه على التراث اليونانى آثم حقا •• لأنه ينتقص من قدر الرجل••والذى يجعلها قضية••دجال •• حسب أى ملم بالقراءة أن يطلع على فهرست ابن النديم ليعرف

انه ما من مثقف عربى ، قد عاش هذه الحقبة الا وكان بوسعه أن يطلع على روائع اليونان ••

النقطة المهمة ، هى أن المكتبة العربية كانت فى ذلك الوقت ، هى المصدر الوحيد للتراث اليونانى •• وليس اجتهادا أن نقول ان بعض الكتب اليونانية الموجودة الآن فى أوروبا مصدرها الوحيد هو ترجمة عربية بعد أن ضاعت أصولها اليونانية •

أوروبا لم تعرف التراث اليونانى الا من الترجمات العربية ، فلم يكن لدى البيزنطيين ولا الصليبيين،الذين جاءوا بعد وفاة المعرى بنصف قرن تراث يونانى يقدمونه ، ولا فكر متقدم ، ولا حــوار عقائدى •

كنا بحكم دورة التاريخ ، ولو كره الكارهون ، القمة الثقافية للعالم كله •• وكان فى مكتبتنا جل التراث اليونانى ، وما من مثقف الا وقد درس هذا التراث فى ترجماته العربية [1] •

وراهب دير الفاروس ما كان له من سـبيل الى معرفة تراث اليونان الا فى نسخ عربية ••

وانه « لتنفيه » لشأن هذا التراث ، وفهم عجيب لمعنى الثقافة ، ان تصور حكمة اليونان وفلسفتهم ، كأنها وشاية يفضى بها راهب فى دير ، لصبى مر به فى رحلة !!

---

(١) راجع فى ذلك كتاب الدكتور الكبير ، والعالم الشريف : الدكتور عبد الرحمن بدوى « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » • فقد أحصى ما قرأه بعض أعلام الفكر الاسلامى فى تراث اليونان ، وما ترجموه ، وما نقحوه من تراجم •

لا •• نحن نقول ان المعرى درس التراث اليونانى دراسة جادة تليق بالروح العلمية الاسلامية فى ذلك الحين••وفى مراجعها العربية ، أدق وأكمل مراجع ، لا فى ذلك الوقت وحده ، بل ولعدة قرون بعدها ••

وليس المعرى وحده الذى اطلع ودرس بل كل المثقفين العرب •• وها هو أبو الطيب المتنبى يقول قبل أن يولد المعرى :

يموت راعى الضأن فى سربه
و : ميتة « جالينوس » فى طبه
من مبلغ الاعراب انى بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكا متبديا متمصرا ••

ها هو المتنبى يرص أسماءهم ، كما تفعل أنت ، فتنثر أسماء هوميروس وفرجيل ومكروبيوس وجلجامش ! ••

بل ان أسماء المتنبى كانت أكثر شيوعا وتداولا بين المثقفين وسماع ورواة شعر المتنبى من شيوع الاسماء التى تقذفها على قرائك اليوم ••

ليس الخلاف على تراث اليونان اذن •• بل على تفسير المناخ الفكرى الذى أنجب العبقرى أبا العلاء المعرى ••

وليس ذلك حديثه •• فمعذرة يا اخوانى •• والى لقاء جديد

الزمالك

٣ ب بهجت على　　　　مايو ١٩٦٦

مدخل

فكرت فى تأليف هذا الكتاب مع انتصار الثورة الجزائرية ، واتضاح طابعها الاسلامى .. والخطأ الذى وقع فيه بعض المفسرين من المشرق العربى فى محاولة لستر افتضاح مفاهيمهم .. هذه المفاهيم التى عاشت خلال نصف قرن تبشر بأنه لا ثورية الا بنفى الاسلام ، ومحاربة الاسلام .. ثم فاجأتهم أعظم ثورات العصر بروحها الاسلامية الكاملة .. فراحوا يعتذرون لثورة الجزائر ! مقسمين بأغلظ الأيمان ، أنها ظاهرة جزائرية ، سببها رعونة الفرنسيين .. وأنها لا تصلح للنقل ولا للتطبيق .. ولا داعى للمغالاة فى أهمية هذا الحدث الذى يرجى زواله باذن الله .. !

وهكذا أثبتوا أنهم ليسوا فقط عاجزين عن الاكتشاف ، بل عاجزون حتى عن التعلم ..

وقبل أن أكتب السطور الأخيرة فى هذه الدراسة ، كانت الأزمة مع حزب البعث ــ الذى لم نؤمن به يوما من الأيام ــ قد

بلغت الذروة وتبين التناقض فى الحركة العربية عامة فى المشرق •• وعلى صليل السيوف ودوى الرصاص فى جبـال الشـمال بالوطن العراقى ـ وذلك قبـل أن يتـدارك الأمر اسـلام الرئيس عارف وحكمته ـ كان لابد أن تطرح القضية بوضوح تام •• وبصراحة •• مهما تكن الصدمة للبعض •• فان الصدمات هى طريق الشـفاء لمرضى العقول •• أما مرضى القلوب فلا دواء لهم •

وفى اعتقادى أن أزمة المشرق العربى •• أو أزمة الحـركة العربية ، هى ذلك الجفاء بينها وبين الاسلام •• محاولة خلق قومية علمانية على الطراز الأوروبى •• دون مبرر أو سند تاريخى أو قومى •

ويمكن أن نرجع سر المفهوم القاصر للقومية العربية •• الى أن الحركة التى يمثلها البعث والتيارات الدائرة فى فلكه ، هى من بقايا ما يسمى « بالثورة العربية » •• التى صنعها الانجليز لتـدمير تركيـا عـدوتهم فى الحرب العـالمية الأولى •• والتى كانت هى والاتحاديين ثم الكماليين مخططا انجليزيا لتمزيق أقوى رابطة تتهدد امبراطوريتهم الجديدة فى آسيا العربية •

---

(١) من المؤسـف ان الحرب قد عادت من جديد ، وامتشق العربى الحسـام فى وجه أحفاد صلاح الدين • ونسى أحفاد صلاح الدين موعدهم فى فلسطين • وان العدو لم يكن يوما هو العرب بل الذى قال ممثله شامتا فوق قبر قاهر الصليبيين : « لقد عدنا يا صلاح الدين » •

الثورة العربية كما رسمها لورنس وقادها ، كانت ترى لنفسها هدفا واحدا ، هو تحطيم تركيا •• واجلاء جيوشها عن المنطقة الواقعة بين شرق السويس وغرب الخليج العربى ••

ومن الطبيعى أن هذه الحركة التى عبثت ضد الخليفة ، تتنافر مع أى تفكير فى الوحدة الاسلامية ••

وكان من الطبيعى أن تتجاوب هذه الحركة التى صنعها وقادها لورنس ، مع الغرب •• وأن تنحصر دائرة نشاطها فى ما يعرف بسوريا الكبرى ، أو الهلال الخصيب •• فلم يكن للانجليز مصلحة فى اثارة ثورة فى مصر التى يحتلونها فعلا •• ونفس الشىء بالنسبة لفرنسا فى المغرب العربى ••

كذلك لم يكن من المعقول أن يقبل المصريون على ثورة يقودها ضباط المخابرات الانجليز ضد تركيا •• ومصر يحتلها الانجليز •• ولا تشكل تركيا أى خطر عليها •• ورغم اشتراك الجنود المصريين اشتراكا فعليا فى الثورة العربية ، ومساهمتهم فى هزيمة تركيا فى الجزيرة والشام •• ورغم اشتراك كبار العسكريين المصريين من أمثال عزيز المصرى •• الا أن الروح العربية الأصيلة فى مصر كانت تنظر ببرود لهذه الحركة التى تتحالف مع العدو الحقيقى الذى يهدد البلاد العربية •• وهو الاستعمار الغربى ••

ولم يكن المصريون وحدهم فى ذلك ، بل شاركهم كل الذين

ابتلوا بالاستعمار الغربى فى المغـرب العـربى ، كما يروى عمـار أوزيجان عن الجـزائريين الطيبين الذين كانوا ينتظـرون أسطولا يرسله السلطان من اسطنبول ، فيخلصهم من الاحتلال الفرنسى .

وكذلك العناصر الواعية فى المشرق العربى ، التى كانت تدرك خطورة الاستعمار الأوروبى الذى يزحف ليرث العرب من الحكم التركى ، والذين كانوا يعلقون الآمال على وحدة اسلامية بين العرب والترك ، فى ظل حكم ديمـوقراطى مزدهر يقف ضـد الزحف الأوروبى [1] .. حتى خابت آمالهم فى « الأحرار » الأتراك الذين تبين أن السم الغربى قد وصل الى نخاعهم .. ولم يكن أتاتورك أقل من كرومر .. خدمة لأهداف الاستعمار ..

فلما سقطت الأمة العربية كلها فريسـة للاحتلال الغـربى ، وانتهت الخلافة ، وشرد الانجليز الشريف حسين بعد ما تجرأ على الدعوة لها .. اتجهت الحركة الوطنية العربية ضد هذا الاستعمار، الذى فاق فى اجرامه كل ما ارتكبه الترك والتتار ..

وهكذا نرى أن الحركة الوطنية فى المغرب العربى لم تخض حربا ضد تركيا ، لم تتعرض لهذه الفجوة بين العروبة والاسلام [2]

---

(١) تأمل موقف شكيب أرسلان ورشيد رضا .. وكيف حرص لورنس على ابعـاد الأمير عبد القادر الجزائرى الحفيد من سوريا ..

(٢) هذه واقعـة يرويها بورقيبـة : « كان الفـريق الثـانى يبحث عن اظهـار الرابطة الموجـودة بين تونس والدولـة العثمـانية ، أملا فى ان تكون درعا =

•• بل كانت عروبتها فى اسلامها ، واسلامها هو وطنيتها •• بينما ظلت الحركة الوطنية فى المشرق تشكو هذا الانفصام ، فقد ورثت شعار القومية العلمانية ، الأقليات التى سارت على مبادىء ومفاهيم « لورنس » بعد أن أذكى الاستعمار روح الطائفية فيها ، ومزق الشام شر ممزق••وأثار مخاوفها بحركات دينية اسلامية مشبوهة•• فتحصنت هذه الأقليات فى الشام بالذات بفكرة القومية العلمانية على طراز أتاتورك •• وسار فى تيارهم بعض المصريين •• ولعل ذلك يفسر عداء سلامه موسى للطربوش ، وتحيزه للقبعة بلا حجة واحدة معقولة •• الا ــ فى نظرى ــ كون الطربوش يمثل عنده الرابطة العثمانية ، والقبعة ترمز لأوروبا ••

= لصيانة البلاد اذا ما أرادت فرنسا الاعتداء عليها • وقصد خير الدين باشا الى اسطمبول عام ١٨٧١ ، أى بعد هزيمة فرنسا فى حربها مع المانيا بقليل ، سعيا لاغتنام فرصة ضعف فرنسا • فركب مركبا قاصدا الآستانة ليأتى للباى بوثيقة (فرمان) ولايته على تونس حتى تظهر تونس أمام فرنسا جزءا من الامبراطورية العثمانية • لكن فرنسا فى حالتها تلك على ضعفها وانهزامها ، ورغم انها لم تبرم بعد الهدنة مع المانيا ، وما زالت أراضيها محتلة ــ تفطنت لغاية رحلة خير الدين ، وقاومتها رغبة منها فى بقاء تونس شكليا مستقلة ، ليسهل ابتلاعها بدون حدوث مشاكل عالمية مع السلطان العثمانى والدول المرتبطة معه مثل روسيا وبريطانيا • فما ان غادر مركب خير الدين باشا الساحل التونسى حتى بدا يطارده طراد فرنسى (فرقاطة) وأراد الطراد أن يمنعه من مواصلة الطريق ، وحدث تساؤل وتململ على متن المركب التونسى • لكن خير الدين أمر بمواصلة الطريق ، وأسرع المركب الى مكان ضيق لايستطيع أن يلاحقه فيه الطراد الفرنسى • فوصل المركب الى اسطمبول ، ورجع خير الدين بالفرمان باعتبار تونس جزءا من الامبراطورية العثمانية « ص ٢٢ مدخل الى تاريخ الحركة القومية » •

ولم يكن سلامه موسى يخفى اقتناعه بأن الزى يؤثر فى تفكير مرتديه •

كانت الدعوة للقومية العربية كما فسرتها الحركات الجديدة الناشئة فى الشرق العربى ، والتى « تصادف » أن قادتها من غير المسلمين — تعنى رفض الوحدة الاسلامية •• استبعاد الاسلام •• على أساس فصل الدين عن الدولة•ولما كانت هذه المشكلة لا وجود لها فى المجتمع الاسلامى ، فقد أثمر الالحاح عليها ، عداء بين الفكر التقدمى العصرى وتاريخ الشعب العربى وواقعه •• ثم كان الالحاح السخيف على الشعوبية ، والدخلاء ، وهو ما لم يعرفه تاريخ العرب •• ولا عرفته أمتنا التى عاشت فى أخوة تامة مع الأقليات المسلمة من أكراد وشركس [1] وبربر •• وزنج •• وامتزجت دماؤنا وارتبطت آمالنا وآلامنا ••

وهكذا أصبحنا نجد متشدقين بالفكر التقدمى •• معزولين عن جماهير الشعب •• وعلى الجانب الآخر ، حركات دينية رجعية معزولة عن الفكر الثورى ••

وكان لابد لعربة الثورة كي تسير ، من أن يتم الربط بين العجلتين :

الفكر الثورى •• والوجود القومى ••

---

(١) لا شك أن الشركس قد انصهروا فى الأمة العربية وأصبحوا جزءا لا ينفصل عنها •

كان لا بد من اكتشاف ثورى لوجودنا ..

وضاعف من خطورة الحاجة الى هذا الاكتشاف .. تنبه الغرب للنهضة العربية ، وشنه حلقة جديدة فى تاريخ الحرب الصليبية ..

والغرب فى عدائه لنا لم يفصل أبدا بين العروبة والاسلام ، وان حاولت جامعاته وارسالياته أن تلقننا غير ذلك .. بل ان «مورو بيرجر »[1] مؤلف كتاب « العالم العربى اليوم » يقولها صراحة فى معرض الحديث عن معارضة الغرب للوحدة العربية .. « لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ، ونفس الشىء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الاسلام انتصارات واسعة فى افريقيا » .

والحق أن هذا هو السبب الحقيقى لمعاداة الغرب للوحدة العربية .

ليس من المعقول أن تكون هذه المعاداة من أجل البترول وحده ، كما يظن البعض ، فأوروبا تعادى العرب قبل اكتشاف البترول ، وكلنا نعرف كيف وقفت كلها ضد محمد على..والبترول لم يبق فى عمره سوى ربع قرن فى أفضل التقديرات .. وحتى لو طال عمره ، فمن الثابت أنه مرتبط بأسواق الغرب على نحو لا يخشى الغرب عليه ، مهما كانت الحكومة القائمة عند آباره[2] .

---

(١) أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برنستون الأمريكية .

(٢) يجب أن نفرق بين البترول كسلعة أساسية فى أوربا وبين الأرباح الظالمة التى يحققها الوضع الاحتكارى الاستعمارى لشركات البترول .

والغرب لا يرهب وحدتنا لمجرد أننا سنصبح مائة مليون •• فالهند أضعاف هذا الرقم ، وليس من يأبه بها •• لأن الهند لا رسالة لها •• والذين يتحدثون عن أمة واحدة •• ذات رسالة خالدة •• ينسون أن يحددوا لنا ماهية هذه الرسالة •• ولا نظن أن «العروبة» رسالة ، لأنها لا تعنى سوى العرب ••

رسالة أمتنا •• هى الاسلام •• بها خرجنا للعالم •• فأسهمنا فى تطوير الحضارة البشرية ، وأثرينا تاريخ الانسان ، ودفعنا بالقيم الفاضلة الى مدارج أعلى •• ومفاهيم أنبل ••

وبالاسلام تمتد حضارتنا لتلتقى فى أخوة مع شعوب آسيا وأفريقيا •• وهنا مصدر رعب الغرب •• بل لا يخفى أن سر تأييد الغرب للقومية العربية بمفهومها العلمانى ، والتى يبشر بها البعث وأضرابه — هو خوفهم من قومية عربية اسلامية،بدأت أعلامها تبزغ من القاهرة والجزائر •• وسر الحقد على القاهرة هو ادراكهم للروح الاسلامية التى لا تقهر فى مصر •

الا أن مصر لم تكتشف روحها العربية المسلمة الا عندما خرجت لميدان السياسة العربية ••

قضـــية وجود

ولم يكن خروجنا للوطن العربى رد فعل •• حتى وان بدا كذلك ، بل حتمية تاريخية نابعة من وجودنا •• جاءت فى توقيتهـا الطبيعى •• فنحن ، وبالتالى ثورتنا ـ ما دامت تعبر عنا ـ مصريون•• عرب •• مسلمون •

هذه قضية وجود •• لا خيار لنا فيها •

اننا نرث الوجود كما نرث اسمنا وجنسنا ولوننا •• وبالطبع نستطيع أن نغير اسـمنا وديننا ، بل وأن نسـلخ جلودنا ونستبدلها بأخرى •• يستطيع محمد حسن الاسكندرانى •• أن يغير دينـه وجنسيته ويتسمى بلويس مارتان ، ولكنه سـيبقى أبد الدهر •• محمد حسن الاسكندرانى ، الذى تجنس بالجنسية الفرنسية ، وغير دينه واسمه الى لويس مارتان •

نحن نرث الوجود •• لحظة ميلادنا فى عصر معين ، وفى نقطة

معينة من خطوط الطول والعرض•• ولا نملك اختيار هذا الوجود، ولكننا أحرار فى تقويمه ، وتشكيله ، والانقسام داخله ، أو حتى التنكر له ، والتبرؤ منه ؛ ولكننا نحمل بصماته أبد الدهر •

والأمم الباقية، هى التى تجعل وجودها فوق كل التفصيليات•• والحضارة المزدهرة هى التى توفق الى فلسفة •• أو دين •• أو نظام •• يحمى وجودها ، وينشر هذا الوجود ••

وعندما تواجه أمة من الأمم تفوقا حضاريا يهدد وجودها بالفناء •• وتعجز عن منافسة هذا التفوق أو امتصاصه ، فان أفضل ما تفعله هو الاحتماء « بقوقعة » وجودها المتخلف •• حتى تستجمع قوتها ، أو يتفسخ عدوها ، فتخرج من قوقعتها ، لتتمثل كل الجوانب المتقدمة من الحضارة المعادية ، وتطور حضارتها هى [1] •

---

(١) ذلك ما فعلته أوربا الصليبية فى العصور الوسطى ، عندما جوبهت بتحدى النفوق الحضارى الاسلامى ، تقوقعت فى تعصبها الأعمى ، لتحمى روحها من أن تسحق تحت تأثير تفوق خصمها •• وسأنقل هنا من مقال للكاتب الايرانى حسن جوادى •• بعض مظاهر هذا التعصب :

« انزعجت أوربا من وجود الامبراطورية العربية ، واعتبرت تلك الامبراطورية عقابا من الله ، وخطرا يهددها بالفناء • وكان أكثر المروجين لهذا الرأى من الاسبانيين ، الذين شاهدوا سقوط ملكهم وانضمام شبه جزيرتهم الى الدولة العربية الكبرى • فوضع أحدهم •• بول الفاروس القرطبى •• كتابا يهاجم فيه تساهل السكان فى أوربا مع المسلمين الذين جاءوا بلادهم ، وقاده نفوره من التعايش السلمى بين عنصرى الاندلس ، الى اتهام النبى العربى الكريم بأنه هو المسيح الكذاب الذى تنبأ سفر « الرؤيا » بمجيئه عند نهاية العالم •

« أما خارج اسبانيا وجنوبى ايطاليا ، حيث حصلت اتصالات مباشرة مع المسلمين ، فقد كان الصليبيون هم الذين كونوا لأوربا فكرتها الأولى عن=

والوجود قضية موضوعية • فكما أنك لا تصنعه ، كذلك فهو لا يتوقف على احساسك وحده •• بل واحساس الآخرين بموفعه من وجودهم •• والمجنون الذى فر هاربا من الدجاج لتوهمه أنه

= الاسلام والعرب ، ويستطيع المرء أن يتصور كم كانت تلك الفكرة عدائية وتمييزية قاتمة ... » •

فرانس بيكون •• اختلق على النبى ••

والمؤرخ « جلبرت » يعترف وهو يؤلف كتابا عن تاريخ النبى •• أنه ليست لديه مصادر عربية ، ولكنه يقرر أنه « لا خوف من الكلام عن رجل تفوق شروره أى ظلم يمكن أن نظلمه به •• »

حتى الكوميديا الالهية التى يصلى لها البعض فى بلادنا ، وضع دانتى فيها ، نبينا — صلوات الله عليه — فى قاع الجحيم ••

ولما هجم المغول على الدولة الاسلامية ، فكر رئيس الحشاشين فى طلب النجده من المسيحيين ضد الزحف الوثنى •• ولكن مطران ونشستر فى انجلترا رد عليه : « فلتتقاتل الكلاب فيما بينها •• حتى يفنى بعضها بعضا ، كى تقوم الكنيسة الكاثوليكية الجامعة على أنقاضها ، ويصبح العالم عندئذ ، بالفعل ، راعيا واحدا ورعية واحدة » •

حتى لوثر قال : « الكنيسة فى روما هى رأس المسيح الكذاب ، اما الاسلام فهو جسده » •

وأندريه درير ١٦٤٧ يترجم القرآن للفرنسية ، ويعتذر عن ذلك مؤكدا أن القارىء الاوروبى لن يتعرض لأى خطر من قراءة القرآن » •

حتى فولتير (اياه) •• ابتدع افتراءات جديدة على النبى العربى ، ولم يظلمه أحد بمقدار ما ظلمه هذا الكاتب الفرنسى « المتحرر » • مما يدل على أن المتحررين لم يتحرروا من تعصبهم ضد الشرق •• هذا التعصب الذى تساووا به مع المحافظين • ولم يكن ادوارد غيبون خيرا من فولتير من هذه الناحية • لقد كتب باعتزاز وبهجة ان حكم الشرق « البربرى » قد مضى عهده ولن يهدد أوربا بعد » (عن مجلة حوار البيروتية عدد : ٥) •

الذين تفتنهم موضوعية البحث العلمى فى الغرب ، عليهم أن يذكروا أن هذه الموضوعية لم تظهر الا بعد أن استتب الأمر للغرب ، وحقق تفوقه الساحق ، ولم يعد يضيره أن يتأمل بعين الانصاف آثار حضارات بائدة •• أو الصفات المدهشة لكائنات منقرضة !!

حبة قمح •• رغم اقتناعه بحجج الطبيب •• المجنون كان لديه سبب وجيه جدا للفرار •• عندما قال : نعم ! أنا اقتنعت بأنى لست حبة قمح •• ولكن من الذى يقنع الدجاج ؟

وأغلب الظن أن بعضا من الذين دفنوا فى مقبرة بورسعيد ، وكتب عليهم جنود الاحتلال فى ١٩٥٦ : « عشرون مسلما » •• بعضهم ليس مسلما •• وبعضهم ربما كان ملحدا•• وبعضهم لم يدر بخاطره على الاطلاق •• أنه يواجه بريطانيا وفرنسا فى النصف الثانى من القرن العشرين بوصفه مسلما •• وهم مسيحيون ••

وبعض الذين استشهدوا كان فى ذهنهم كل حقائق المعرفة عن الصراع بين الامبريالية وشعوب المستعمرات ••

ولكن من الذى يقنع الدجاج ؟!

ونفس الشىء يقال عن البيانات الفرنسية التى كانت تعلن مصرع كذا من المسلمين فى معارك الجزائر ••

اذ لايكفى أن ننفض عنا عروبتنا واسلامنا ، وأن نقرر انتماءنا لحضارة البحر الابيض ، أو اننا امتداد حضارى للغرب ، أو أن الحضارة العالمية واحدة••فنحن سواء•• شركاء فى التراث الفرنسى مع شعب فرنسا •• لا يكفى ذلك لكى يقبلنا الآخرون •• بل يتحتم أن ننقل بلادنا •• أن نذير البحر الأبيض لكى ننتقل بتلك القطعة من جسم الكرة الأرضية الى هناك ولما كان ذلك مستحيلا فان التنكر لوجودنا لا يفضى الا الى الضياع •• الى العبودية للآخرين ••

وكان طبيعيا أن تلتفت مصر الى وجـــودها العربى المسلم ، عندما وجدت حكومة مصرية بعد ثورة ٢٣ يوليو .

وكان طبيعيا أن تصطدم مصر بكل الذين يخشون هذا الوجود، والذين عملوا منذ أيام الحرب الصليبية على محو هذا الوجود :

اما بالقتل والابادة كما هو الحال فى اسرائيل ..

أو بتغيير الوجود : بالفرنسية كما حاولت فرنسا فى الجزائر، لولا أن اعتصم الشعب هناك بوجوده الاسلامى ، فقهر هذا الوجـود محاولات فرنسا لافناء الوجود العـربى .. وبذلك بقيت الجزائر ـ وبفضل الاسلام ـ للعرب ولافريقيا .

أو بتـدمير الأسـاس النفسى لوجـودنا ، عن طـريق الغزو الفكرى ، بطبعنا من الخارج بالقسمات الغربية ، وتلقيننا أن الصواب ـ وليس الأقوى والأفضل فقط ـ هو الغرب .

القبعة والردنجوت وشرب الشاى فى المساء ، وتدخين السيجار وشرب الويسـكى .. ثم أسلوب الحيـاة الغربيـة فى الزواج .. التفكير .. الموسيقى .. الرقص .. الكتابة .. الشعر . . قواعد النحو .. السياسة .. الحب .. بل حتى العقيدة [1] .

وما دام ذلك هو الصواب .. فاننا عندما نعود ونقيس وجودنا

وتراثنا وتقاليدنا ، نكتشف حتما أنها لا تنطبق على هذه المقاييس [2] ، وبالتالى ندينها ، ونحاول جهدنا أن نعتذر عنها ، أو أن نتبرأ منها.. فنبدأ من نقطة الضعف ، ونحاول أن نقلد الكمال على الجانب الآخر .. فلا نكون على أحسن الفروض ، أفضل كثيرا من القرد الذى يلعب الشطرنج ويأكل بالشوكة والسكين .. مهما أتقن القرد هذه الحركات .. فان الانسان يظل طبعا هو الأفضل .. واذا

---

(١) تأمل تفشى التعبير بالصليب كرمز فنى . حتى ليسجل احد النقاد فى اعجاب لابى القاسم الشابى انه أول من استخدم الصليب كرمز .. وكيف أن زينب بطلة قصة « تلك الايام » لفتحى غانم عندما تفكر فى حبيبها عمر تفتح التوراة لتقرأ نشيد الانشاد !!

(٢) تأمل هذا الاهتمام المزعج بما يسمى صعوبة اللغة العربية ، والمحاولات المحمومة التى تبذل لاستبدال حروفها . والذين يحملون هم اللغة العربية ، لا يكلفون أنفسهم عناء البحث فى حال اللغة الفرنسية أو اليابانية مثلا .. ولا يتساءلون لماذا لا يكتب اليابانيون بحروف لاتينية ، بل لا يتساءلون كيف استطاعت اللغة العربية بصعوبتها هذه أن تكون لغة الكتابة وبنفس حروفها للغات أخرى عديدة .. الفارسية .. التركية .. الكردية .. الهوسا .. السواحلى .. التركستانية .. الاندونيسية .. كيف استطاعت هذه الحروف ان تعبر عن كل هذه اللغات .. ويعجزها التعبير عن لسانها !؟

ولا تصدقهم عندما يدعون التقدمية . ان شو اين لاى يرفض اقتراحا بالكتابة بالحروف اللاتينية ، رغم صعوبة اللغة الصينية المذهلة ... وحجة شو اين لاى الشيوعى اليسارى هى الحرص على التراث الصينى .. فتأمل (!!)

كان حتما أن يبقى قرد وانسان •• فخير للقرد أن يبقى قردا مكتمل القرودية ، سيدا فى غابته ، من أن يتحول الى مسخ ، يقلد الانسان ليضحكه فى السيرك •• فما بالك لو أصر الانسان على تقليد القرد ليصبح فى جماله ورشاقته وسمو حضارته •• لمجرد أن دورة التاريخ قد جعلت هذا القرد أكثر رفاهية ••

خلاف حضارى

وهنا يثور سؤال •• هل هناك خلاف حتمى بين حضارتنا ، وبين الحضـارة الغـربية •• أما من سبيل لوجـود حضارة انسانية واحدة •• تتمثل كل الناس ويتعايشون فى ظلها ؟!

التجربة والتاريخ تؤكدان أن مثل هذه الوحدة الانسانية لم تتحقق أبدا ، والطريق بعيد اليها •• فلم توحد البشر لا الفتوحات ولا الديانات •• ومنذ أن كان الشرق والغرب •• وهما فى صدام•

ولا بد قبل أن نشير الى مظاهر الخلاف الحضارى بيننا وبين الغرب الصليبى••أن نؤكد أن حديثنا يدور حول المسيحية الغربية، باعتبارها وجودا حضاريا ، فلسفة حضارية معادية ، لا كدين ، ولا علاقة لها بمسيحية الشرق •• التى تكون جزءا عضويا من تاريخنا وحضارتنا ومكونات وجودنا •• وأنا أعتقد ــ رغم اعترافى بعـدم تعمقى ــ أن الخـــلاف بين كنيستنا المصرية وكنيسة روما •• هو

في حقيقته وجوهره •• خلاف حضارى •

والفرق الحضارى ليس خلافا فى الآلات •• فالناس جميعا يديرون الآلات على نحو واحد •• والصناعة اليابانية لا تختلف عن الصناعة الأمريكية اختلافا يبرر تميزها •• انما يختلف الناس حضاريا باختلاف نظرتهم للوجود ، وما يتفرع عن هذه النظرة : نظرتهم للانسان سيد هذا الكون ، وعلاقة هذا الانسان بضميره •• أو ربه •• وأهم من ذلك ، أو ربما نتيجة لذلك ، علاقة الانسان الفرد بالانسان الفرد •• الحب والزواج •• الأبوة والأخوة •• القبيلة •• الشعب •• اللون •• الجنس •

لذا فنحن عندما نتحدث عن حضارتنا نعنى الاسلام •• حتى ولو كان لنا امتداد عربى قبل الاسلام •• ورغم اعتزازنا بأطلال

---

(١) اخبرنى كاتب يابانى جاء لزيارة القاهرة فى مؤتمر الكتاب الافرو آسيويين انه لاحظ ان تماثيل المسيح وصوره فى المتحف القبطى لا تحمل دماء •• بعكس تماثيل المسيح وصوره فى كنائس الكاثوليك •• وقال ان نفس الشىء يميز الايقونات المسيحية فى اليابان • لأن الشرقيين ـ على حد قوله ـ يكرهون حمل الدماء • وقال الكاتب اليابانى ، انه يؤلف رواية تاريخية عن دخول المسيحية الى اليابان ، يثبت فيها أن المسيحية فى اليابان تحولت الى لون من البوذية •

وأود أن أثبت هنا ملاحظة ذكية للأستاذ « حسين فوزى » فى كتابه « سندباد مصرى » رغم اعتراضى التام على روح الكتاب ••

الملاحظة هى أن المصريين قد رفضوا القول بطبيعة مزدوجة للمسيح ••• فقال المصريون الاقباط بطبيعة واحدة الهية ، وقال المصريون المسلمون ، بطبيعة واحدة بشرية ••

فتأمل كيف نتفق ـ مسلمين ونصارى ـ فى وجهة النظر ولو من دينين •• ضد الفهم الاوروبى •

الحضارة الفرعونية أو السبأية أو الفينيقية .. وبذلك الشعب الذى عاش على نفس الارض من آلاف السنين .. الا أن الأمر لا يخرج عن دائرة الاعتزاز .. لأننا لسوء الحظ لا ندرى شيئا متكاملا عن علاقاته الانسانية ، ولا يمكن أن نحدد خصائص حضارية على تخمينات واستنتاجات ، وقراءات قريبة من المعنى لكتابات ممزقة .

لم يكن للعرب حضارة متكاملة الا بظهور الاسلام ، ولم تمتحن حضارتنا الا بعد أن خرجت من الجزيرة الى ميدان التطبيق بين كافة الأجناس البشرية المعروفة .. واجتازت التجربة بنجاح.

الاسلام هو التراث الحضارى للعرب .. مسلميهم ومسيحييهم [1] . والتراث الاسلامى ، هو الحقيقة الأولى فى حديثنا عن التراث المشترك كاحدى مكونات الأمة العربية [2] .

وتعالوا نضع أيدينا على بعض خصائص حضارتنا .. بقدر ما يسع غير المتخصصين :

الانسان المسلم .. يؤمن ايمانا مطلقا بالتوحيد .. فالتوحيد هو جوهر الاسلام .. وفيه وصل الى أكمل صوره .. الله فرد

---

(١) أشد معارضى هذا الرأى هو حزب البعث .. ولكنى عثرت على نص من منشور انتخابى قديم (٢٠ سنة) لمشيل عفلق حسبى أن استشهد به هنا : « نريد أن تستيقظ فى المسيحيين العرب ، قوميتهم ، يقظتها التامة .. فيروا فى الاسلام ثقافة قومية لهم . يجب أن يتشبثوا بها ويحبوها ، لأنه متصل بطبعهم وتاريخهم » .

(٢) نورد هنا كلمة وليم مكرم عبيد الخالدة « أنا مسلم وطنا نصرانى دينا » .

صمد •• والانسان انسان •• لا تشوب الهية الله شائبة •• وما من بشر له على الناس فضل من ألوهية •• والانسان المسلم •• يبدأ حرا •• طاهرا •• خيرا [1] •• لأنه يولد مسلما •• بمجرد الميلاد • حتى أولاد النصارى واليهود •• يولدون مسلمين : « ما من مولود يولد الا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه [2] » •

اذن فالفطرة خيرة •• والناس يولدون على الفطرة •• وهم ليسوا بحاجة الى اجراء خاص يدخلهم فى عداد المؤمنين حتى يبلغوا سن الاختيار •• فيمارسوا شعائر الاسلام •

وفى المقابل نجد أن الحضارة الغربية تؤمن بأن الناس يولدون على الجانب الآخر •• يولدون خطاة ، ولا بد من تعميدهم لكى يتطهروا • ومن مات قبل أن يعمد لم يمت على الهدى •• لا بد اذن من تدخل البشر ، وقبل حرية الاختيار ••

وعندما نموت نحن المسلمين •• فالأفضل أن يقول المرء الشهادتين مؤكدا اختياره ••

وفيما بين الميلاد والحياة تمضى حياتنا لا خضوع فيها لانسان مهما كان ، ولا واسطة بين الرجل وضميره •• أى ربه •• ولا اذلال لهذا الضمير يكشف ضعفه أمام انسان آخر •• بل نستطيع

---

(١) من وجهة نظر المسلمين •
(٢) حديث شريف •

أن نخطىء وأن نتـــوب بيننا وبين ضميرنا ســـبعين مرة فى اليوم الواحد •• فيغفر الله لنا •

وعندما نتزوج فنحن نفعل ذلك بارادتنا ، وفيما بين الرجل والمرأة لادخل لثالث بينهما الا لحفظ حقوق الطرف الضعيف وصيانة لمستقبل الأولاد •• واذا شاء الزوجان الانفصال فأمرهما بيدهما وحدهما •

علاقات انسانية • وانسانية فقط ، تستمد قدسيتها واحترامها من ارادة الانسان الحرة •

وكلها عقود على الأرض تعقد، وعلى الأرض تبقى أو تفصم•• والانسان ليس عبدا لقرار يتخذه ، أو لخطيئة منذ ملايين الأجيال•• فما يعقده الانسان ، هو الذى يفصمه •• وما يرتكبه ، هو مايحاسب عليه •• ان شاء كفـــر وان شاء آمن •• على شرط أن يتحمـــل مسئولية قراره •• لا اجبار على الدخول فى طاعة الله •• فلا اكراه فى الدين •

والناس بعد ذلك سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى •• يؤذن لصلاتهم بلال الأسود •• ويخطط لحـربهم سلمان الفارسى •• ويقود جيشهم العبد السابق زيد ثم ابنه أسامة•

والأقلام الصليبية لا تكف عن « الزن » حول قضية الرق فى الاسلام •• يتبعهم فى « زنهم » بعض المسلمين •• ناسين أن الرق

لم يمح بقانون من أمريكا بلد الحريات الا منذ قرن واحد فقط ‥ ناسين أن سفن أوروبا الكاثوليكية قد نقلت الى أمريكا البروتستنتية ٣ ملايين عبد من أنجولا وحـــدها ! ‥ اختطفوا بكل ضروب الخداع والارهاب والوحشية‥ ليباعوا فى أسواق الرقيق وبورصة العبيد فى العالم الجديد ‥ ارض الحرية والمساواة .

لماذا تعمى عيـونهم عن تجارة الرقيـــق على بعـد مائة عام ، ويذرفون الدمع على وجود رقيق منذ ١٣ قرنا ؟!

لقد كان الرق ظاهرة اجتماعية ، مارسه وثنيون ومســيحيون ومسلمون .

ولم يلغ الا بقيام الظروف المادية التى تكفل وتحتم الغاءه ‥ ولكن موقف الاسلام منه أنصع من أن يلطخه السخام الصليبى .

النبى قدوة المسلمين لم يكن له جوار ولا عبيد ، بل حـرر عبده وتبناه ! لولا أن نزل القرآن ينهى عن ذلك التبنى ‥ لأن نسبة المرء الى أبيه ـ ولو كان عبدا ـ أشرف له ، وأحفظ لانسانيته، من أن ينسب ولو الى محمد رسول الله .

والمقوقس النصرانى ، عظيم القبط ، أهـدى النبى جارية ،

---

(١) يقول جمس ديفى فى كتابه « البرتغال فى افريقيا » حتى ١٨٣٢ كانت تجارة العبيد تمثل ٨٠٪ من مجموع تجارة أنجولا ‥ ويؤكد أن هذه المستعمرة البرتغالية لم تفق بعد من آثار هذه النكبة التى ابتلت بها ، والتى سلبتها على أقل تقدير ٣ ملايين من شبابها بيعوا فى أسواق العبيد فى الامريكتين .

فأعتقها الرسول ، وتزوجها ، وولدت له أحب بنيه اليه والى المسلمين .. سيدنا ابراهيم .. الذى لو عاش لكان جدا لأحفاد نبينا .. والذى يوم مات ظن المسلمون أن الشمس قد كسفت لموت ابراهيم ابن مارية القبطية الجارية .. التى ظل المسلمون يصلون عليها وسيظلون .. دون أن يغيروا حتى اسمها .. أو اخفاء دينها الأول[1] .

لا حاجة الى تعداد كل ما فعله الاسلام لتحرير العبيد .. فنحن لا نرد على متعصب .. ولكن يدهشنا أن يثير هذا الحديث من يدعون الايمان بتفسير مادى للتاريخ . ويعرفون أن وجود نظام الرق كان مرحلة ضرورية، لايمكن الغاؤها بظهور النظام الرأسمالى وحاجته الى العمل الحر ..

والمقارنة بين انسانيات الحضارات ، هى فى معالجتها للضرورة التاريخية ..

بين بعثات أوروبا التى كانت تجرى تعميد الرقيق بالجملة عند شاطىء المحيط الأطلسى .. والتى كانت تؤمن أن خير طريق لهداية الزنجى هو بيعه ليعيش فى مجتمع مسيحى[2] .

---

(١) ما أجمل لحن المساواة والتسامح نردده صبية لا نفقه شيئا فى الفلسفات ... ونحن لا نزال بعد فى الكتاب .. ولا أدرى أما زال أطفالنا يحفظون « أولاد النبى صلى الله عليه وسلم سبعة .. ثلاثة ذكور .. وأربع اناث .. وكلهم من السيدة خديجة الا ابراهيم .. من مارية القبطية » .

(٢) البرتغال فى افريقيا للكاتب الأمريكى « جيمس ديفى » .

وبين حضارة كانت ترى فى عتق الرقبة خير الفضائل .

ونظرة المجتمع الاسلامى الى العبيد تختلف تماما عن نظرة المجتمع الغربى ، فهى علاقة قانونية ، قد تنتقص من أهلية الخاضع لها ، ولكنها لا تغير آدميته أبدا ..

فى أمريكا اليوم يرفض الطلبة البيض أن يجالسوا أحرار الزنوج .. وينسفون الكنائس التى يدخلها أطفال سود . ولكن شيوخ المسلمين لم يرفضوا منذ ألف سنة أن يقود جيشهم عبد ، وأن يتلقوا دينهم من عبد .

تأمل أوزيجان عندما يتحدث عن العاهرة الأوروبية ترفض مراقصة « العربى » .

ولكن بنت عمة رسول الله تزوجت عبده زيدا ، ويطلقها زيد، فيتزوجها رسول الله ..

والعبد يستطيع أن يكون سلطانا لمصر .. فاذا أراد فقيه أن يضع حدا لاستبداده .. نقب فى أوراقه الشخصية ومستنداته القانونية .. ليقيم عليه الدعوى بأنه لا يزال عبدا لم يتحرر بعد ، رغم توليه عرش السلطنة !!

تأمل مغزى هذه القضية الشهيرة .. فلم يقل المسلمون .. كيف يحكمنا عبد .. بل كيف يحكمنا عبد لم يتحرر ؟..

وتأمل أبا بكر يشترى بلالا ويعتقه..فيقول عمر بن الخطاب:

« أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » •• بلال العبد الأسود باسلامه وتقواه سيد عمر بن الخطاب •• أمير المؤمنين •• الفاروق •• ثاني الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم جميعا •

لا علينا ••

ان ايمان الاسلام المطلق بالمساواة بين البشر •• كان السبب الأول في انتشاره في آسيا وافريقيا •• حتى سموه دين الملونين • والمتتبع لثورات أوروبا يجدها كلها محاولة للحوق بالاسلام •

البروتستنتية ، كما يجمع العارفون ، كانت نتيجة الاتصال بالعالم الاسلامي خلال الحروب الصليبية •• وهي في جوهرها — أو في بدايتها — محاولة لتحرير الأفراد من سيطرة الكنيسة ليصبحوا كالمسلمين •• حيث لا كنيسة ، ولا كهنوت ، ولا صكوك غفران •• ولكن البروتستنتية تحولت الى كنيسة بدورها •• ثم كانت الثورة الفرنسية •• الغاء للكنيسة بل وللدين •• الذي بدا أنه لا سبيل الى فصله عن الكنيسة وسطوة الكاهن •

ودعت الثورة الفرنسية الى المساواة •• واذا ما صرفنا النظر عن التفرقة الاقتصادية ، فلا جدال في أن الثورة الفرنسية ، وما أعقبها من ثورات بورجوازية ، قد حققت المساواة بين أبناء المجتمع الغربي • ولكن هـذه المساواة كانت على حساب الانسان غير الأوروبي[1] •

---

(١) ألغت الديموقراطية في أوربا الألقاب • والاسلام لم يعرف الألقاب •• وأول =

وهنا نصطدم بظاهرة لم تعرفها حضارتنا ، ونعني بها « ازدواج الضمير » .

وهو ذلك الذى يجعل مواطنا صالحا ورجلا فاضلا ، لا يخالف القانون ولا يرضى بالاعتداء على الحريات، ويثور بل يحمل السلاح اذا سمع أن حكومته قد اعتدت على متهم من مواطنيه ، أو عذبته لانتزاع اعتراف منه ، ويضحى بحياته متطوعا للقتال مع اليونانيين الثائرين ضد الظلم التركى ، ويؤمن أن المتهم برىء حتى تثبت ادانته [1]

هذا المواطن الذى لا ينام الليل اذا سمع باعتداء على الحريات فى لندن وباريس وروما .. ما ان يركب البحر ، وينتقل جنوبا أو شرقا ، حتى يستحيل الى وحش كاسر ، ويخترع من أفانين العذاب ، والاضطهاد الفردى والجماعى ، ما تعجز عنه أقسى الوحوش ، وما يفوق عهود البربرية .

= ما ظهرت مع الأتراك . ولكنها كانت رتبا عسكرية ولا نورث .. ولا يزال الغربيون الذين يأتون الى بلادنا يقفون حائرين امام ما يسمونه فوضى الاسماء .. واختفاء ما يعرف باسم عائلة .. وأتاتورك عندما أراد أن يتفرنج نص على ضرورة حمل اسم عائلة .. الاسلام لم يعرف ذلك لكى لا تتوارث الامتيازات الطبقية .. فالمرء باسمه وفعله ..

(١) تأمل المبدأ الاسلامى .. « ادرأوا الحدود بالشبهات » قبل ظهور مبدأ : « المتهم برىء .. الخ » باثنى عشر قرنا .. وخلال قرون رهيبة ، كان المبدأ القانونى فى اوروبا .. المتهم مذنب حتى تثبت براءته .. فى هذه الأيام كان الاسلام يأمر المحققين بتلمس البراءة للمتهم بالشبهات .. انه أم القاعدة القانونية « الشك يفسر لصالح المتهم » .

جيش نابليون •• أبناء الثورة الفرنسية التى أعلنت الحرية والاخاء والمساواة •• نهبوا وسرقوا وضربوا وعذبوا المتهمين فى مصر •• وأعدموا سليمان الحلبى على الخازوق •• وقتلوا الأسرى المسلمين فى يافا حلا لمشكلة تغذيتهم والمواصلات !

واذا كان المرحوم «محمد صبحى وحيده» فى كتابه ، الذى يمثل قمة التأثر بالغزو الفكرى، يدهش لأن مشايخ القاهرة قد ألقوا بكل احتقار الشارة المثلثة الألوان ورفضوا تعليقها على صدورهم ، وهى التى كان أحرار أوروبا يتخاطفونها •• على حد قوله •

فاننا لا ندهش ولا نعجب ، بل نفهم ونكبر موقف شيوخ الأزهر •• فماذا تعنى لهم شارة فرنسا •• حرية •• اخاء •• مساواة ؟ الاخاء والمساواة فى الاسلام •• لا يطاولهما نظام آخر الى يومنا هذا••والحرية ينتهكها حملة الشارة بأفظع مما فعل التترى••

وثوار فرنسا أبناء مقتحمى الباستيل ، بل هم بأشخاصهم الذين خرجوا من خلف المتاريس بعد أن أسقطوا شارل العاشر •• ماذا فعلوا فى الجزائر ؟

البعض يحلو له أن يفرق بين فرنسا الثورة •• وفرنسا التى تحولت بعد ذلك الى دولة استعمارية•• ونحن نرى أن هذه التفرقة لا محل لها ، فيما يتعلق بنا شعوب الشرق •

فرنسا الثورة •• رأيناها فى مصر••ورأينا كيف نكل نابليون

محرر أوربا •• بشعب مصر عند ما ثار من أجل الحرية •

وفرنسا ثورات ١٨٣٠ هى التى احتلت الجزائر ، وفتكت بشعبها ، وطاردت مساجده وحولتها لكنائس •

لذا فعندما يتغنى كاتب غربى بحرية واخاء ومساواة أوربا فهو لا يطربنا •• أما عندما يتغنى بها كاتب عربى ، فاننا نحس مرارة الجرح فى قلوبنا •• لقد جربنا من هذه الحضارة وفى أرقى عصورها ألوانا من القسوة والتنكيل •

ومع ذلك فليست القسوة ولا التنكيل ، هى ما نعترض عليه هنا •• فكل الحضارات قد عرفت التنكيل ، ومارست الاضطهاد •• ولكن الصفة المميزة ، التى تفرق بيننا وبين الحضارة الغربية •• هى ازدواج الضمير •• النابع من ايمان حتى النخاع بأن الناس ليسوا سواسية •• وأن ضربة السوط فوق ظهر الأبيض تؤلم ولكنها على ظهر الآخرين تهذيب واصلاح !

فى حضارتنا •• قامت حكومات استبدادية ، وقتل الناس بعضهم بعضا ، ودسوا السم حتى لاخوتهم •• ولكن ذلك كله لم تشبه شائبة من التفرقة العنصرية أو العرقية •• لم يكن هناك من يرى أن قتل الأسود تحضر •• أو أقل بشاعة من قتل الأبيض •• أو أن الجريمة فى القاهرة مباحة •• ومحرمة فى دمشق [1] •

---

(١) راجع باب الأسد والشغبر الناسك لابن المقفع •

المساواة التامة حتى أمام الارهاب الوحشى .

هذه المساواة بين الأجناس العديدة والقوميات والألوان المتنافرة التى كونت المجتمع الاسلامى ، والتى سمحت لكل متفوق بأن يطمع ويتطلع الى الصدارة ، دون اعتبار للونه أو جنسه .. هذه المساواة هى التى جاءت الشيوعية تحاولها باسم العالمية .. باسم الأممية .. لا فرق بين لون أو جنس أو عرق .. كلمة « سوفيتى » تجب كل ما سبقها ، كما كانت كلمة « مسلم » منذ أربعة عشر قرنا .. ولكن هل وصلت الى ما وصل اليه الاسلام فى هذا المضمار ؟! ما زال الوقت قصيرا .. والنتائج أقل من أن يستند اليها وحدها [1] .

ننتقل الى سؤال جديد..هل ما زالت أوروبا عند صليبيتها.. أم أن الصليبية انتهت بانتهاء الحروب الدينية .. أذكر أن سلامه موسى كان ينفى القول المشهور عن اللنبى .. يوم دخل القدس وقال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وحجة سلامه موسى ، هى أن اللنبى كان عضوا فى جمعية الحادية .. ولا غرابة .. بل ان ذلك يؤكد وجهة نظرنا .. فالدين قضية وجود .. لا تدين .. وحرب الغرب ضدنا ليست حربا لأهداف دينية [2] ، بمعنى أنها

(١) راجع كتاب الماركسية والغزو الفكرى .

(٢) مورهيد نفسه يقول فى كتابه « النيل الابيض » وهكذا ترى أن المسيحية قد تسللت الى وسط أفريقيا فى حماية المسلمين الذين رحبوا بالمبشرين ، كرفاق متمدينين يواجهون معا بربرية افريقيا .. وليس قبل السبعينيات فى القرن التاسع عشر عندما تنبهوا الى الدمار الذى يصيبهم على يد المسيحيين وكانت =

رسالة هدى ، ومهمة تبشيرية ، كما يصورها الغرب •• انها حرب للسيطرة ، للاستغلال ، لتحقيق التفوق وضمان استمراره •• ومع ذلك فهى حرب صليبية •• تعادى الاسلام والمسلمين ، لأن المسلمين هم عدو الحضارة الغربية •• ولا أشك أن من يعادى الاسلام ، ويقتل المسلمين ، مضطر لأن يرفع شعارات الحرب الصليبية •

صحيح أننا نعلم أن التمييز العنصرى ، فى جنوب افريقيا ، أو فى أمريكا ـ ليس فى حقيقته قضية لون ، بقدر ما هو استغلال ، وحالة تمكن البيض من الحصول على امتيازات أكبر •• ورغم ذلك ، فنحن نسميها حربا عنصرية •• ولا يمنعنا ادراكنا لحقيقة الدوافع •• من تسمية الصراع نفسه •• ونفس الشىء بالنسبة للحرب الصليبية •• أوروبا كانت تحركها الصليبية عندما جاءت تنتزع بيت المقدس أيام ريتشارد ولويس القديس الذى حوله المصريون الى سنط الوز •

وهى أوروبا الصليبية التى أبادت الاسلام والمسلمين من أسبانيا فى سنوات •• بينما ترك المسلمون الأديان الأخرى قرونا •• حتى جمعوا جموعهم •• ومحوا كل ظل للاسلام [1] •• والتى اعتبرت

= ثورةعرابى وثورةالمهدى ، ومطاردة المبشرين فى يوجندا هى ثمرة هذا الادراك •

(١) فى قرطبة وحدها •• كان أربعمائة مسجد •• وليس فى اسبانيا كلها اليوم مسجد واحد !! فرنسا الثورة •• والحرية والاخاء حولت مساجد الجزائر الى كنائس •• وعمر بن الخطاب فى القرن السابع •• يرفض الصلاة فى الكنيسة حتى لا ينتزعها مسلمون متعصبون من بعده ويقولون «هنا صلى عمر!•» =

اكتشافها لطريق رأس الرجاء الصالح تطويقا للاسلام ، وهى أوروبا التى يصفها عمار أوزيجان فى كتابه « الجهاد الأفضل » • هى أوروبا التى يروى « يوسف الرويس » الزعيم التونسى « أن الفلاحين فى جنوب فرنسا، كانوا يغلقون بيوتهم فى ١٩٥٦ ، ويفرون الى الشمال خوفا من المسلمين الزاحفين »

•• ولكن هل لا زالت أوروبا عصر النهضة •• والفضاء والصواريخ عند صليبيتها ؟!

لنسمع هذه الشهادة ••

الشاهد هنا هو «عمار أوزيجان» وزير الزراعة الجزائرى•• الثائر الاشتراكى ، الذى يتحدث وخلفه تاريخ ثورى •• يخرس ألسنة المكابرين •• وبين يديه نصر لا يقبل التأويل •• هو الجزائر العربية الاشتراكية المسلمة •

« عمار اوزيجان » الذى بدأ حياته الثورية ماركسيا شيوعيا•• يصل من خلال الثورة الى روح الاسلام ، والى الوجود الاسلامى •• وهو يتحدث فى كتابه الخالد « الجهاد الأفضل » عن تاريخ فرنسا فى الجزائر ، ومحاربتها الدين يقول :

= وترفض بريطانيا فى عصر الفضاء فتح مسجد ثان فى لندن • بينما لا زالت الكنائس والمعابد فى قلب الوطن الاسلامى منذ أربعة عشر قرنا • بل وتفتح الكنائس حيث لا مسيحى واحد •• تلك هى روعة حضارتنا •

«ان العدو الاستعمارى كان أكثر ذكاء حين كان يهدم الجوامع ويحولها الى ثكنات أو اصطبلات » •

« كان الدين الاسلامى وثاقا يمتن اتحاد مختلف العناصر فى القوة الشعبية التى تزخر بها بلادنا » •

« لن نشدد الكلام على الروح الصليبية التى تجلت فى تحويل الجامع الى كنيسة ، واقامة الأنصاب التذكارية يعلق عليها الصليب الحديدى ، فوق العبارة اللاتينية (الصليب ينصرك) • ولن نشدد على شعارات المدينة ، كشعار مدينة الجزائر الذى انتشر فى العالم كله بواسطة الطابع البريدى الذى رسم عليه صليب ضخم فى السماء، منتصرا على هلال صغير منكس فوق البحر »[1] •

لا أدرى كيف لا نغضب لهلالنا••ما دام تنكيسه يرمز لانهيار وجودنا ، ولخضوعنا لسيطرة المحتل الأجنبى •• وهل التقدمية أو الثورية أن نساهم مع المحتل فى جذب هذا الهلال الى أعماق البحر •• أم فى رفعه الى عنان السماء ؟!

نعود الى سماع شهادة أوزيجان :

« لم تكن كاترين الثانية الروسية تجهل تأثير هذه القوة الجذابة على النفوس ، حين تطاولت على سلطة البابا بيوس السادس،فحددت الابرشيات وأنشأت كرسيا أسقفيا عهد به الى كاهن بسيط يمارس

---

(١) ص ٢٩ ـ ٣٠ •

السلطة على جميع الكاثوليك فى دولتها •• ولم تكن تجهل أيضا تواشج الاسلام والحياة الاجتماعية حين أعلنت الحرب على دين محمد •• الذى تدين به بحماس شعوب آسيا الوسطى [1]

« كان الوعى القومى فى قرنه فكرة الوطن بالعروبة وبالاسلام الذى عاد عاملا من عوامل التقدم ينمو ويزداد سموا وقوة [2] •

انتهت شهادة عمار أوزيجان •• وله أقوال أخرى ••

أليس من الطبيعى فى بلد كان احتلاله فى مفهوم فرنسا •• فرنسا سقوط الباستيل ، وفولتير ، وروسو••فرنسا الحرية والاخاء والمساواة••فرنسا هذه فهمت احتلال الجزائر على أنه نصرللصليب على الهلال •• أليس من الطبيعى أن يكون أول لحن جزائرى بعد التحرير هو :

مبروك يا محمد عليك

الجزائر رجعت اليك

ما بين طابع البريد بصليبه المنتصر •• وبين اللحن المسلم •• قصة صراع يقول الن مورهيد •• « انه لن ينتهى •• »

ونستدعى « الن مورهيد » للشهادة ••

---

(١) ص ٣٤ •

(٢) ص ٣٦ •

الن مورهيد ، كاتب أمريكى أشهر من « فرنسوا ساجان »••
ومؤلفاته تطبع فور صدورها بجميع اللغات الحية •• ومؤلفاته تدور حول فتح أفريقيا « النيل الأبيض » و « النيل الأزرق » وتقام ضجة حول هذه المؤلفات وصل صداها الى بعض صحفنا •• والمؤلفات باختصار ليست الا لونا من أدب الأساطير (العلمية) التى تتغنى بأمجاد وفتوح الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين ••كقصص الظاهر بيبرس مثلا •• مع الفارق••ان قصص الظاهر بيبرس كانت تذكى حماس المسلمين ضد الغزو الأجنبى••بينما تذكى ملاحم «مورهيد» حماس الغزاة المحتلين للاستمرار فى استعمارهم ، وفارق آخر أن قصص الظاهر وضعت من سبعة قرون •• أما قصص « مورهيد » فتوضع فى ١٩٦٠ •• والدافع اليها هو استقلال أفريقيا •• وارتباط هذا الاستقلال بانتشار الاسلام دين المساواة •• وان كان الكتاب الصليبيون يخدعون جماهيرهم ، بزعم أن سر هذا الانتشار هو تعدد الزوجات !••

الأفضل أن نسمع شهادة الصليبى الن مورهيد •

تحت عنوان « تمرد المسلمين » •• يحكى عن ثورة عرابى •• وثورة المهدى !! وفى ملحمة غوردون البطل المسيحى ينقل عنه أنه كتب لصديق له حول اسلام «سلاطين» عندما وقع فى أسر المهدى :

---

(١) يقول المؤلف أن الذى اقترح عليه تأليف الكتاب هو الحاكم العام البريطانى فى أوغندا •• وانه راجعه مع حاكم تنجانيقا والسفير البريطانى فى السودان

ليس بالأمر الهين •• لأوروبى أن ينكر ديننا خوفا من الموت [1] •

« كان لدى غوردون ما يقوله عن التناقض بين المسيحية والاسلام فى الشرق الأدنى •• : « ان الخطر الذى يجب أن نخشاه •• ليس زحف المهدى شمالا عبر وادى حلفا•• بالعكس•• انه لأمر بعيد الاحتمال أن يتجه شمالا •• ان الخطر من طبيعة مختلفة تماما •• انه ينبعث من وجود قوة محمدية [2] منتصرة عند حدودكم •• الأمر الذى سيثير الشعوب التى تحكمونها •• فى كل مدن مصر سيقوم احساس بأن ما فعله المهدى يمكن أن يفعله المصريون •• وكما طرد الدخلاء والكافرين يمكنهم أن يفعلوا نفس الشيء •• وليست انجلترا وحدها التى ستواجه هذا الخطر•• ان نجاح المهدى قد أثار المخاطر فى الجزيرة العربية وسوريا » •

« ان العداء للمهدية فى أوروبا كان عميقا جدا •• كانت أوروبا تحس أن العقيدة المسيحية نفسها تواجه تحديا من هؤلاء القتلة المتعصبين فى السودان [3] •

---

(١) ص ٢٣٤ •

(٢) الغرب يسمينا « محمديين » لأنه يتهمنا بعبادة محمد ولا يلقبنا الا بالوثنيين •• الوثنية وعبادة الانسان الذى يتحول الى اله •• متأصلة فى الانسان الاوربى •• بينما ينزع الشرق ــ والعرب خاصة ــ الى التوحيد •• فنحن مسلمون ، ومعنا النصارى كما يسمون فى الشرق العربى •

(٣) وكانوا يلقنوننا فى مصر والسودان •• ان ثورة المهدى قام بها تجار الرقيق احتجاجا على الغاء الرق •• وضد الاستبداد المصرى ••

« أقام المهدى ما يشبه فردوس محمد : حديقة باردة ‥ ونساء جميلات ، وفى الليل تدخل ٤ حوريات خيمته ‥

وقد فهم أنه ما من حورية يحق لها أن تتضايق من وجود الأخريات ‥ » [١]

وينهى فصل « التمرد المسلم » بهذه العبارة « الصراع بين الاسلام والمسيحية لم ينته . فقد كانت هناك جماعة أوروبية لاتزال مسيطرة على منبع النهر ‥ وكانوا مصممين على ألا يسقطوا » .

ويقول « فى نهاية ١٨٨٣ كان يمكن القول بأن الصراع بين الاسلام والمسيحية قد وصل الى نتيجة مشرفة للطرفين ، فقد استولى الانجليز على مصر ولكنهم خسروا السودان .

والفصل التالى عنوانه « النصر المسيحى » [٢] .

ويقول مورهيد : « لقد انتهت هذه القلاقل (ثورات عرابى والمهدى) كما رأينا بالهزيمة الساحقة للاسلام على ضفاف النيل(!) ولكن ثبت انها هزيمة مؤقتة ليس الا ‥ ومنذ سنة ١٩٠٠ وهناك

---

(١) الن مورهيد يعرف كل شيء عن الاسلام ‥ ولكن هذا السخف للاستهلاك الصليبى فى الغرب .

(٢) بعض صغار الأساتذة الذين تعلموا التفسير المادى للتاريخ حديثا يستنكرون علينا أن نفسر التاريخ دينيا ‥ فما رأيهم فى أستاذ مثل مورهيد ، يؤرخ ثورات افريقيا فى القرن التاسع عشر وفتحها تحت عناوين « التمرد المسلم والنصر المسيحى » وذلك فى كتاب صادر فى ١٩٦٠ ؟! بل ويصف غزو فرنسا لتونس فى ١٨٨١ على أنه انهيار لمعقل حصين من معاقل الاسلام فى أفريقيا!

تقدم منتظم للاسلام فى شرق ووسط افريقيا •• وفى الوقت الحاضر يكسب المسـلمون مؤمنين جـددا أكثر من المسـيحيين •• كما قال « رولاند اوليفـر » انهم يكسبون السـباق •• وأوغندا تعتبر الآن مسيحية •• ولكنها ستستقل قريبا (!) وكل من مصر والسـودان تحت حكم مسلم • لذا فما من رجل عاقل ، يغامر بالقول بأن ذلك هو نهاية الأمر •• التناقض بين الدينين •• الشرق ضد الغرب •• يبدو كأنه جزء دائم من الواقع الافريقى ، وهذا الصراع يمضى أحيانا تحت الأرض ، وأحيانا فوقها••ولكنه مستمر ومحتوم كالنيل نفسه »[1] •

انتهت شهادة ألن مورهيد •• فى كتابه النيل الأبيض ،

نستمع الى شهادة مجلة التايم الامريكية عدد ١١ يناير سـنة ١٩٦٢ تحت باب الدين ••

كتبت المجلة : « الانتشار السريع الذى يحققه الاسـلام فى أفريقيا اليوم ، ظاهرة لم يسبق لها مثيـل منذ أن نشر المحـاربون العرب بحد السيف عقيدة محمد عبر ثلاث قارات •• وفى القارة المظلمة اليوم مائة مليون مسلم ، ولكن تعاليم محمد البسيطة تضيف اليهم ٩ ملايين مسلم جدد كل عام ، أى تسعة أضعاف ما تكسبـه المسيحية •• ومع انتشار الاسلام تنمو أحلام الوحدة الاسلامية ••

---

(١) ص ٣٧٦ •

امبراطورية ناصر .. التى يسعى لهـا المجلس الاســلامى الخاضع لاشراف الحكومة المصرية ، والذى يعد احدى المؤسسات التبشيرية الكبرى فى العالم .. ويذيع المؤتمر من اذاعته القوية رسالة القرآن لمدة ١٢ ساعة بثمانى لغات يوميا .. ويقدم ١٣٠٠ منحة دراســية لشباب المسلمين فى الجامعات المصرية .. ويرسل مصاحف للقـادة فى أفريقيا وآسيا ومنهم جومو كينياتا الذى تلقى أخيرا مصحفا فاخرا مع رسالة رقيقة من عبد الناصر .. ومطابع المجلس الاسلامى التى لا تكل تغرق أفريقيا بنسخ رخيصة من القرآن الكريم .. »

بالطبع .. لا يهمنا مدى الجدية فى اتهامات التايم ، بقــدر ما يهمنا أن هــذه هى الفكرة التى تقدم للمســيحى الغربى لاثارة حماسه ، وكسب تأييده ، لمقاومة استقلال افريقيا ، والوقوف فى وجه القاهرة التى تنشر الاســلام وتسعى للوحــدة الاسلامية .. وعندما تعمد مجلة مثل « التايم » الى التهويل والتهويش .. فان الأمر خطير .

وشاهد آخر :

لويس لوماكس .. وهو للأسف زنجى أفريقى ، ولكنه باع

---

(١) سيدهش التقدميون .. المتمدينون . عندما يعلمون أن كبرى المجلات الأمريكية مثــل « التايم » بها باب دائم عن الدين .. بينما يخجل الواحـد منهم أن يستشهد بآية قرآنية .. ويعير غالى شكرى عبد الحميد جوده السحار بعـدد الآيات القرآنية فى قصصه .!

قلبه وضميره للاستعمار الغربى •• أجداده خطفوا من افريقيا •• وأجرى تعميدهم كما يصف « جيمس ديفى » على هـذا النحو : « لم يكن هناك متسع من الوقت لاجراء الطقوس المسيحية ، فكان يجرى تعميدهم بالجملة عند الشاطىء قبل أن تجرهم السلاسل الى السفن المبحرة الى العالم الجديد •• لضمان الخلاص لأرواحهم •• الشىء الوحيد الذى لا يباع •• » ولكن لوماكس يعتبر نفسه جزءا من الحضارة الصليبية ، ويستغل لونه الأسود ، ليلعب دور الحاج أو التاجر الأريب الذى تحدثنا عنه قصص ألف ليلة •• الذى كان يأتى من بلاد الافرنج فيدعى الاسلام لبقيم بيننا يجمع المعلومات التى توجه وترشد زحف الأساطيل ••

والشهادة التى نسجلها هنا من كتاب وضعه الزنجى الأمريكى لويس لوماكس باسم « الأفريقى النافر » •• الكتاب يحاول اخافة الغرب من زحف أفريقى تقوده القاهرة ، وباسم الاسلام طبعـا •• وسننقل فقرات من حديث للمؤلف معالزعيم الافريقى «سيلوندىكا» عضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى الديمقراطى فى روديسـيا الجنوبية •• قابله فى لندن ، وبعد أن تبين وطنيته وصلابته لجأ الى سلاح الصليبية :

الصحفى الامريكى : هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر عن أفريقيا •• هل هذا صحيح ؟

الزعيم الافريقى : صحيح الكنيسة لم تلعب دورا سليما فى

الشئون الافـريقية •• لقد وقفت ضـــدنا الى جانب هـؤلاء الذين استعبدونا •• انها اليوم تقف على قدمها الأخيرة فى أفريقيا ••

الصحفى الأمريكى : هل أنت مسيحى ؟

الزعيم الافريقى : نعم •• أنا كاثوليكى •• تعلمت فى كليـة « ماريان هل » فى ناتال بجنـــوب افريقيا •• وأنا طبعـا لم أنضم للكنيســة لدوافع سياســية ، بل عن اعتقـاد روحى •• ورغم ذلك شعرت انها خذلتنى •• الاسلام سينتصر فى افريقيا وبالرغم من اننى سأظل كاثوليكيا •• الا أننى لا أستطيع أن أقول مخلصا اننى آسف لتطور الأحداث •• رغم كل شىء فان الدين يشكل جانبا حاســما من قيم الانسان •• ومن ثم يدفعه الى الحرية •• وهذا ما فشـلت فيه الكنيسة • لقد أعطتنا كل شىء ما عدا الحرية •

لنا تعليق ••

هذا الموقف الذى يشرحه الزعيم الوطنى الافريقى هو عين ما نقصده بالتفرقة بين مسيحى الصليبية الأوروبية ، وبين نصرانى الشرق •• فهو كاثوليكى •• ولكنه يرتبط وطنيا بالاسلام •• لأن انتماءه الى كاثوليكية أوروبا يجعله عميلا لاستعمارها •• عقبـة فى طريق تحرر أفريقيا •• هذا التحرر الذى يرتبط بالاسلام •

كذلك الكنيســة الكاثوليكيــة التى يمثلها المبشرون ، أعطت

شعوب المستعمرات كما يقول الزعيم الافريقى ، كل شىء الا الحرية .. لأنها هناك لسلب هذه الحرية .

وهكذا نرى أن الغـــرب لم يفرق فى استعباده للشرق بين النصرانى والمسلم ، الا لضرورات تمزيق الجبهة الوطنية ، ولكنه أبدا لم يعتبر مسيحى الشرق جزءا منه .. ونفس الموقف يجب أن يتخذه واتخذه الوطنيون فى الشرق الذين اعتبروا أنفسهم جـزءا من الوجود الاسلامى الوطنى [1] .

نعود الى شهادة لويس لوماكس :

« فى القاهرة صدر قانون يمنع الجامعة الأمريكية والارساليات الأمريكية من تدريس الدين ، وكان على الأرساليات الأمريكية أن تختار بين ترك التبشير بالمسيحية أو العودة لبلادها .. » «والسلام الجمهورى فى مصر يقول الله هو درعى » « اننى كمسيحى أمريكى صدمت بما رأيت .. » وعنـدما يركب الاتوبيس يســمع مصرية تحتج على الزحام فترد عليها أخرى « الطريق الى مكة سيكون أشد زحاما » وهو يكتب الجملة بألفاظها العربية ، ويعلق على قول المرأة المزعوم : « اذا تحقق حلم ناصر عن العالم الاسلامى .. فسيزدحم حقا الطريق الى مكة » .

---

(١) روى لى الأستاذ اسطفان باسيلى المحامى المصرى المعروف تفسير تسمية « دير السلطان » بهذا الاسم .. انه نسبة للسلطان صلاح الدين الذى رده الى أقباط مصر بعد ان انتزعه منهم الصليبيون فسموه باسم السلطان المسلم ..

وبالطبع •• نحن لا نتحدث عن مكة حتى فى الاتوبيسات ••
ولكن مادام الهدف هو حشد الغرب فى معسكرات ريتشارد قلب الاسد والقديس لويس •• فلا بد أن يزعم الكاتب ان معسكرات صلاح الدين قد نصبت فى القاهرة •

والآن شهادة ألمانى ، هو « هنريس كاستر » كتبها فى مجلة « دى بوليتشيا مينونج » عدد يناير ١٩٦٣ •• تحت عنوان الاسلام السياسى •• يقول الكاتب الألمانى •• ان الدور الذى يلعبه الاسلام فى الأحداث الجارية بالشرق الأوسط لم يتضح بعد فى أوروبا •• ويمكننا أن نقرر ان التفكير الدينى يحدد الكثير مما يجرى فى هذه المنطقة •• وأنه خلف العديد من المشاكل التى نراها فى آسيا وافريقيا تكمن العقيدة المحمدية ••

وقد لا يرضى عن هذا التحليل الغربيون (يقول الكاتب) الذين نبذوا منذ زمن بعيد التفسير الدينى للأحداث ، ولكن هذه هى الحقيقة •

ثم يشرح تاريخ القومية العربية فيقول « لقد قدمت أوروبا للشعوب الاسلامية فى القرن التاسع عشر فكرة القومية العصرية ، وفى هذه الفترة كانت الشعوب الاسلامية بدون استثناء تقريبا •• اما تحت قبضتها أو تحت تأثير نفوذها السياسى على الأقل •

وفى القرن العشرين استغلت هذه الفكرة بنجاح سريع ضد أوربا نفسها ، باعثة فى الأذهان ذكريات الانتصارات الاسلامية ••

بل وتبعث حتى ذكريات الحروب الصليبية » •• ثم يستشهد بخطبة الرئيس عن صلاح الدين فى بور سعيد ••

ثم يقول : « وعندما وجهت القومية العربية مجهوداتها قبل ٥٠ سنة ضد العثمانية ، لم تؤكد جانبها الدينى •• وفى البداية •• لعبت الأجزاء غير المسلمة وخاصة فى لبنان دورا حاسما •• وفى مصر كانت الحالة مختلفة تماما •• لأن القضية الرئيسية فى مصر كانت خلع الحماية البريطانية •• لذلك كانت حركتها القومية منذ البداية « محمدية » •• وهى حتى الآن لم تتغير •• »

ومنذ بداية حركة القومية العربية•• لم تتوقف الخلافات حول ما اذا كان من الضرورى اكتسابها طابعا اسلاميا •• أو اقتصارها على الجانب العربى •• ولا زال الخلاف قائما •• واذا كان من الممكن أن تجتذب القومية العربية اللادينية عددا من المتحضرين •• فان الكتل العريضة لا تجتذبها مثل هذه المفاهيم •• فالعروبة عندها لا تنفصل عن الاسلام »

« وهكذا يرى فريق أن الوحدة العربية جزء من الحركة المناصرة للاسلام •• بينما يرى الآخرون أن الاسلام ليس شرطا ضروريا لتحقيق أهداف الوحدة العربية ».

« وفى الحقيقة أن حدود القومية العربية لا تلتقى فحسب مع الاسلام ، ولكنها محاطة أيضا بدائرة كاملة من الحركة الاسلامية »

« ومن السهل أن نرى تيارا ليبراليا ، ولكنه بالحقيقة سيكون محمديا »

« قد يفضل البعض التقليل من أهمية التصريحات التى تعطى للشعب•• ولكن حتى المتطرفون فى تحيزهم للتجديد من العرب•• لا يمكنهم تجاهل الحاح الجماهير فى طلب دولة اسلامية »

« وربما كان من الخطأ أن نخلط بين الاسلام والقومية العربية، ولكن لا يقل خطأ عن ذلك أن نحاول التغاضى عن العلاقة الوثيقة بين الاثنين ••

« ان الاسلام لم يصبح مجرد دين ، بل عنصر سياسى »

***

أوربا اذن •• أو بمعنى أشمل الحضارة الغربية ، لا زالت عند صليبيتها••وقد ازدادت حدة هذه الصليبية فى السنوات الأخيرة مع خطر زوال امبراطوريتها فى افريقيا •• بيت المقدس الجديد •• وضمان رفاهية الغرب وتفوقه •• وأوربا تدرك أن المنافس الحقيقى لها ، والقادر على تصفية نفوذها هو العربى •• المسلم •• والذى يعد المصرى أكبر اخوته ••

وفى مواجهة هذه الصليبية •• كان لا بد أن ندرك وجودنا الحقيقى •• مصريون •• عرب •• مسلمون ••

ذلك هو وجودنا •• ومكونات شخصيتنا •• وكما أن الشجرة تمند فروعها مطاولة السماء بقدر ما تضرب بجذورها فى الارض•• فكذلك نحن : بقدر ما نعتز بتاريخنا •• باسلامنا •• بقدر ما نكون جديرين بمستقبل أشرف •• بعيدا عن محاولات اليائسين للعودة الى الماضى •• أو التنكر للتقدم الحضارى •

ومن هذه النظرة يمكننا الحكم على أولئك الذين حاولوا ويحاولون القاء التراب على وجه ماضينا •• اقتلاعنا من جذورنا •• تحقيرنا ، باحتقار ماضينا ، أو خلق تناقض لا أساس له بين حقائق وجودنا الثلاث •• فى محاولة لترجيح احداها •• بهدف هدمها جميعا ••

وقد تعرضنا خلال المد الثورى الذى أثارته ثورة ٢٣ يوليو وظلت ترعاه وتدفعه بانتصاراتها ، تعرضنا لحملة تخريب واعية ، كانت تهدف الى تشويه عروبتنا ، وبتر هذه العروبة عن الاسلام •• وتشويه الاسلام ، واثارتنا لحرب ضد التراث وضد الدين ••حرب لا مبرر لها ، ولا تخدم الا أعداء عروبتنا •• أعداء اسلامنا •• المتآمرين على وجودنا •

ومن مؤامراتهم الفصل بين مصريتنا وعروبتنا •• فالبعض يهاجمنا نحن المصريين •• لأننا لسنا عربا •• بل لنا تاريخ يمتد الى ما قبل الاسلام •• متخذين من التاريخ الفرعونى والقبطى نقيصة يطعنون بها عروبتنا ••

وعلى الجانب الآخـــر شركاء لهم فى الهـدف ، ولكن ثيابهم فرعونية ، وأصواتهم تدق بالحماس والطرب لمصر الفـرعونية •• مصر القبطية •• مصر التى هى أعظم من العرب والعروبة والاسلام!

والشاتم لنا •• والمادح فينا •• يلتقيان عند نقطة واحدة ، هى عزلنا عن العرب •• والمرء لا يحتاج الى دراسة التاريخ وعلوم الاجتماع ليدرك أن لاعروبة بغير مصر•• وأن وجود مصر الحقيقى فى عروبتها واسلامها ••

والفريق الأول يهاجم ثورتنا لأنها تسعى الى فرض سـيطرة مصرية ويتحدث عن رمسيس •• بينما الفريق الثانى يغرق ثورتنا هذه فى «المدح» ويقسم ليل نهار •• أنها هى التى ردت للمصريين جنسيتهم العربية ••

والفريقان يريدان الوقيعة بين الثورة والشعب المصرى ، تارة بالأسف على الشعب المصرى ، لما تقوده اليه العروبة •• وتارة بالمن عليه بما تفضلت به عليه العروبة !

ولا حاجة للقول بأن الشعب المصرى العربى لم يتخل أبدا عن عروبته ، ولم يقف مرة واحدة بمعـزل عن قضـايا العرب • وتتمنى أن يأتوا بموقعة واحدة خاضها العرب ، وكانت مصر بمعزل عنهم ، أو لم تكن قلب الأحداث [1]

---

(١) الا النضال تحت زعامة لورنس المباحثى الانجلىزى •• فالحق اننا قابلناه ببرود تام •• وان تكن قطعان من جندنا قد ساقها الحكم الانجلىزى للعمل فى هذه التى يسمونها الثورة العربية •

نـــماذج

وما أحسبنى هنا بقادر على أن أستعرض كل نماذج الصليبية فى أجهزة الاعلام عند الغرب ، أو حتى فى استقصاء التأثر بهـذه الروح فى الفكر العربى ، فذلك جهد ينوء بالفرد .. ويعجز مثلى .. بل حسبى أن أتقدم ببعض النماذج لعلها تكون بداية دراسـة شاملة .

وسنبدأ هنا بمثل للتقدميـة الزائفة ، التى تقـود صاحبها الى هاوية الرجعية ، بل الى التستر على الاسـتعمار وتبرئتـه من أجل حرب مزيفة ضد العادات الدينية .

الدكتور الطبيب « مصطفى محمود » كتب تحت عنوان «شمعة تحترق » مقالا تحدث فيه عن دور الصدفة فى حياة الناس ، وعلاقتها بالتخطيط . وأورد مثالا للصـــدفة ، حكاية الكوليرا التى أصابت مصر قبل حادثة القرين ، فزعم انها جاءت مع حاج طيب القلب جاء يحمل زجاجة من ماء زمزم . تخاطفها أهل قريته ، فلم يجد حلا

الا أن يلقى بماء الزجاجة فى بئر القرية • وتصادف أن كانت الزجاجة ملوثة بميكروب الكوليرا ، فمات نتيجة ذلك ثلاثة ملايين مصرى !

والحكاية كما ترى لا تتفق مع الواقع ، ولا مع المنهج العلمى الذى يحاول صاحبنا أن يبشر به ••

وأغلب الظن أنه يتحدث عن وباء الكوليرا الذى وقع فى ١٩٠٢ ، وهو كوباء القرين ، جاء نتيجة للاحتلال البريطانى : كوليرا القرين جاءت فى بعض الأطعمة الملوثة التى وصلت الى الأهالى فى معسكرات الجيش البريطانى ، سواء عن قصد،كما يقول البعض ؛ لتخريب المد الوطنى عقب اثارة القضية المصرية فى مجلس الأمن ، أو كنتيجة محتومة لوضع قوات أجنبية لا تخضع لرقابة صحية •

ونفس الشىء بالنسبة لكوليرا مطلع القرن العشرين بصرف النظر عن صحة الرقم الذى يورده الدكتور للتهويش ، والذى لا يتناسب مع تعداد مصر فى ذلك الحين •

جاء الوباء مع الجنود الهنود العاملين فى قوات الاحتلال ، واخترعت الدعاية الانجليزية حكاية الزجاجة والبئر لتخفى جريمتها •• واذا كانت قد انطلت على الناس وقتها •• فما أظن أننا نقبلها اليوم••ولقد رجعت لبعض المختصين وأجمع رأيهم على أن ميكروب الكوليرا لو كان فى ماء زمزم ، لأصيب به الحاج نفسه ، ولانتقل

الوباء بواسطته هو وعشرات الألوف من زملائه الحجاج ، لا لمصر وحدها ، بل للعالم الاسلامى بأجمعه .. ولما كانت هنـــاك حاجة بالميكروب لكى يتجشم عناء الرحلة من الزجاجة الى البئر .. عبر الصدفة .. وكل هؤلاء الحجاج الطيبين يحملونه فى أحشائهم .

• ميكروب الكوليرا .. كما يعرف أى طبيب ، حســـاس جدا ، ولا يمكنه العيش فى نسبة الملوحة المرتفعة فى مياه زمزم .

• وهو ــ كما يعرف أى دكتور ــ يحتاج لرعاية خاصة ، وثبات فى درجة الحرارة ، لا نظن أن الحاج قد كفلها له فى هذه الزجاجة .

• منذ أن ســـافر أول حاج لبيت الله الحـرام من ١٤ قرنا والناس يحملون ماء زمزم ويعبون منه ، ولم تسجل حالة وباء كوليرا بين الحجاج فى سنة من السنين .

هـــذه القضايا كلها غفل عنها الطبيب ، لكى يغيظ المسلمين ، ويبدو أمام الناس بمنظر التقدمى الذى لا يخاف ولا يأبه بمشـاعر الرجعيين المتدينين .

والقارىء السطحى سيصدق الدكتور ، وسينفر من المسلمين الجهلة ، الذين يحملون الكوليرا من ماء زمزم ، وسينسى جريمة الاستعمار ، بل ويتسرب الى نفســه احترام هذا المستعمر المتمدين الذى لا يشرب من زمزم ، ولا يحج لآبار الكوليرا .

والمسلمون الأتقيـاء ، وهم ملايين ، سينفرون من العلم الذى يمثله الطبيب •• ومن الصحافة التى تنشر له • وهكذا تبقى هوة بين العلم والشعب •

هذا مثال لما يحدثه الغزو الفكرى [1] •

---

(١) سأنقل هنا رسالة قارىء الى جريدة الجمهورية يعلق فيها على تذاكى (ادعاء الذكاء) الدكتور المذكور حول فوز البطل المسلم كلاى على ليستون :

تحت عنوان : هل هذا يليق بالبطل محمد كلاى ؟•• كتب عربى السيد حسن أبو العينين ـ الشركة العربية لحليج الأقطان ببنها : « قرأت فى مجلة (صباح الخير) فى عددها رقم ٤٩١ ـ الصادر بتاريخ ١٠ يونيو الجارى تحت عنوان (ضحكوا علينا) فى صفحة (يوميات نص الليل) للأستاذ مصطفى محمود •• ما معناه •• أنه كان هناك اتفاق بين (سونى ليستون) و (محمد على كلاى) بطل العالم فى الملاكمة للوزن الثقيل •• يقضى بأن يتظاهر الأول بالهزيمة عند أول فرصة تلوح لكلاى •• وقد كان • وفى أقصر ملاكمة عرفتها (حلبات •• الملاكمة) سقط ليستون فى أقل من دقيقة منهزما بالضربة التى أجمع نقاد العالم فى الملاكمة على أنها لا تستطيع أن تطيح بطفل رضيع ، وقبض الاثنان أكثر من ٦٦٠ر٠٠٠ جنيه » الى هنا كان مضمون الكلمة التى كتبها السيد مصطفى محمود •• وفى تعليق السيد الكاتب تهكم لا يصح بتاتا أن يطلق ويوصف به (محمد على كلاى) الشاب الذى استطاع أن يهز دوائر الاتحاد العام للملاكمة فى أمريكا ، ويعلن اسلامه ويقبل كل صنوف التحديات ، ويعلن على الملأ انه اختار الاسلام لأنه طريق الخير والحق والحرية •• وان من آمن بالله لابد وأن ينصره الله ويثبت أقدامه •• وفى اسلام (كلاى) أكبر دليل على قوة ايمانه بالله وبكتبه ورسله •• فلا غرابة حينئذ ، من انه عندما انتصر أن يعلن وسط الآلاف انه انتصر •• لأن الله أمده بالقـوة من عنـده عز وجل وأنار قلبـه للحق •• وأعمى بصيرة منافسه ••

لا غرابة فى مثل هذه الكلمات لانها عادية •• ولأن كل من ينصره الله •• ما دام يسعى للحق •• يقول مثل ما قاله (كلاى) وكل هذا لا مكان فيه للدهشة •• والتهكم والسخرية •• ولنقرأ تعليق السيد الكاتب : (العجيب فى الأمر •• ان السيد محمدعلى كلاى ما زال يعتقد انه انتصر بمعجزة الهيا وهو وجه طريف =

= آخر من المباراة ‥ أن يتخيل هذا الرياضى (العبيط) ان الله يشترك بمعجزاته فى حلبات الملاكمة والبنج بونج والثلاث ورقات ‥ صدقونى انه عالم مجنون ‥ مجنون ‥ مجنون ‥) .

فهل كلام السيد الكاتب يليق ببطل مثل محمد على كلاى ؟ ان كان هذا يليق ، فلماذا أبرق اليه الاتحاد العام العربى للملاكمة ببرقيات التهنئة ؟ لماذا رحب به شيخ الأزهر ؟ لماذا هللت لانتصاره الصحف العربية ؟ ولماذا أحببنا جميعا هذا الشاب ‥ ؟

وعلقت « الجمهورية » على الرسالة قائلة : « مثل هذه الكلمات لا تستطيع أن تنال أو تقلل من تفوق محمد على كلاى وقدرته وانتصاره الهائل ‥ وهى أيضا لا تستطيع أن تجرفنا الى دروب التشكيك فى عظمة الاسلام وروعته ‥ كأسلوب للحياة والسلوك القويم ‥ ان كلاى قبل عام ١٩٦٠ ــ أى قبل أن يعتنق الاسلام ــ كان يعاقر الخمر والتدخين والمباذل ، وآمن بحق ان طريق الاستقامة هو طريق النصر ‥ وهذا أمر بديهى يعرفه كل من شرح الله صدره بالاسلام ، وليس معجزة من المعجزات ‥‥

اننا نجل ونحترم ونحب كلاى ‥ ونؤمن به بطلا سيظل النصر حليفه ‥‥ وصدق الله العظيم اذ يقول : « ولينصرن الله من ينصره » .

(الجمهورية ١٩٦٥/٦/٢٧)

لنقل نحن كلمة ‥

لو أن الأمر كان مجرد « يوميات نص الليل » لما بالينا بهذا الذكاء أو الفهلوة التى اكتشفت وحدها ما عجزت عنه مؤسسات الملاكمة فى أمريكا وملايين المراهنين وملايين الدولارات ‥ ومئات الحكام والرياضيين الذين يبغضون كلاى بغض الموت لأنه أسلم ‥ ولأنه زنجى ‥ ما علينا ‥ من حق كل انسان فى هذا الزمان أن « يتذاكى » وأن ينفث ذكاءه على صفحات الجرائد ‥

ولكن الأمر أكبر وأخطر من ذلك ‥ فان المجلة التى كتب فيها هذا الكلام قد هاجمت حركة الزنوج المسلمين فى أمريكا واستشهدت عليهم بكتابات « لويس لوماكس » الذى أشرنا اليه فى ص ٤٩ من هذا الكتاب ‥

ما الذى يغضب البعض فى قيام حركة اسلامية فى زنوج أمريكا ‥ ألم يتجه « محمد على كلاى » بعد اسلامه الى القاهرة ‥ هل ثمة عاقل يكره أن يتجه الناس الى وطنه ؟! ‥ هل يكره عاقل أن يرتبط عشرون مليون زنجى فى الولايات المتحدة الأمريكية بدينه وبلده ؟! ‥ ألا يشكل اليهود بملايينهم الخمسة =

= قوة ضغط هائلة على السياسة الأمريكية ؟ أيزعجنا أن يرتبط الزنوج في أمريكا بالعالم العربى من خلال نوع الاسلام ؟

أليس الاسلام هو الدين الوحيد الذى يحرر الزنجى وهو الفلسفة الوحيدة التى لا تعترف بالتمييز العنصرى .. ما الخطأ فى أن يلفظ الزنجى الحضارة الغربية بكل زيفها وهو يعيش فى قمة تألقها وأنضج أمثلتها ثم لا تعطيه صفة الآدمية .. ما الخطأ اذا لفظ هذه الحضارة وعاد الى دين المساواة الى حضارة الاخاء .. الى المدنية التى أنجبت بلالا وعمارا .. بل حتى كافور الأخشيدى ..؟!

لا .. التقدمية ترفض هذا .. تقدمية من .. ولحساب من ؟! .. لاندرى .. أو بالأحرى ندرى .. ولا نقول .

وإليكم آخر

ظهر منذ أعوام •• ولغير ما سبب معروف ، ناقد •• أغلب الظن أنه مصرى •• اســـمه غالى شكرى ، ماركسى التفكير [1] •• عنصرى متعصب ، يحمل حقدا دفينا على تراثنا •• ويتعلق بأقدام الفكر الغربى •

الناقد المذكور ، بمناسبة وبدون مناســبة ، يطعن فى وجودنا الاسلامى مدعيا التقدمية •• ولو استطاع أن يمحو الاســـلام من تاريخنا لفعل••فهو ينكر أن يكون له أثر فى ثقافتنا •• بل لايعتبره موجودا فى التراث الانسانى !!

فعندما يتحدث عن تاريخ التراجيديا فى مقال بمجلة الـكاتب عدد « يوليو » •• مقال ينحنى فيه ثلاث مرات للأب الراهب جوميه •• نراه يستشهد بقول جان فرايبــه •• « الضمير البشرى موطن

---

(١) هو لا يخفى ماركسيته ، بل يقول عن الشيوعية أنها « امتداد أكثر ازهارا للآراء التقدمية » الكاتب عدد يوليو ١٩٦٣ •

لنزاع لا يفتأ يتجدد بين الانســان القديم الذى يرزح تحت نير الخطيئة الأولى والانسان الجديد الذى خلقه التعميد خلقاً آخر » .

والمسلمون لا يرزحون تحت نير خطيئة أولى..لأنهم يؤمنون بأن الله غفور رحيم .. وأن كل انسان مسئول عن نفسه ، وعن خطاياه .. كذلك لا يعتقد المسلمون بأن التعميد يخلق الانسان من جديد .. بل تخلقه أفعاله وارادته الحرة ..

ولكن الناقد غالى شكرى ، شأن أساتذته فى مدارس التبشــير التى تعلم بها ، لا يسلك الاسلام فى عداد التراث الانســانى ، ولا يعتبر المسلمين عنصرا لابد من اضافته فى وضع قوانين عامة للجنس البشرى .

بل حتى فى تحليل مصر .. نراه يؤكد « تم تفاعل حضارى بين الفكرتين المسيحية والمصرية ما تزال لهــا رواسب فى النفس المصرية عند المسيحى والمسلم على السواء » .

نحن نعتز بتراثنــا كله .. وننحنى لا للراهب جوميه . فما اعتدنا الانحناء لرهبان بل ننحنى لتاريخنا الفرعونى .. والقبطى.. ولبطولة آبائنا رهبان الصــحراء . ولكن بمفهوم يختلف تماما عن مفهوم غالى شكرى وآبانوفرالحديث ولأننا نعتز بتاريخناكله لايمكن أن نتنكر للاسلام ولا يمكن أن نقبل حذفه هكذا منمكونات النفس المصرية .

ولكن هل حذفه شــكرى غالى .؟ نعم يقول فى نهاية مقاله

« ومن مصر القبطية الى مصر العربية (ولا أقول الاسلامية ، لأن الحضارة العربية كانت أعمق من أن يكون الاسلام عنصرها الوحيد، كما أن التجربة العربية مع الاسلام تختلف تماما عن تجارب الأمم الأخرى مع نفس الدين) مصر الفرعونية • مصر القبطية • ومصر العربية الحديثة•• هى الحلقات الثلاث الرئيسية فى تاريخنا القومى ومن خلال الامتزاج الحضارى العميق بين هذه الحضارات الثلاث تكونت ملامح النفس المصرية » [1]

وداعا يا أربعة عشر قرنا •• وداعا يا موطن الأزهر ••وقلعة الاسلام وعاصمة الفاطميين •• وقاهرة الصليبيين •• آسرة لويس التاسع •

وداعا •• قد صدر قرار المحو ممن لا يرد قضاؤه •• الناقد •• السند غالى شكرى •• مصر الفرعونية التى اندثرت من عشرين قرنا •• تعيش فى دمى •• ومصر القبطية التى دامت سبعة قرون تشكل مصيرى •• أما أذان الاسلام يتردد خمس مرات من نصف ألف مأذنة بالقاهرة •• فلم نتأثر به •• ولا يجوز نسبته لمصر [2] •!

الناقد المذكور ، أخرج كتابا عن « أزمة الجنس فى القصة العربية » لنا رأى فى بعض ما جاء بهذا الكتاب :

المؤلف ساخط كل السخط على العلاقة الجنسية فى الاسلام

---

(١) ص ٥٤ عدد سبتمبر ١٩٦٣ مجلة الكاتب •

(٢) ترجيح العروبة فى كلامه على الاسلام ليس حبا فى معاوية ولكن بغضا فى على كما سنرى

•• على تعدد الزوجات ، على سهولة الطلاق •• جاعلا من هـــذه القضايا أس الفساد والبلاء وأم الخطايا جميعا •• ولا يخجل من أن يقول :

« التركة التي ورثها مجتمعنا على مدى الأجيال •• المواخير والدعارة فى عصر الرشـــيد والمأمون والمعتصم والمتـوكل والعصر البويهى ومصر الفاطمية [1] •

ماذا بقى لك أيها العربى من تاريخك•• لتفخر به •• وهذه أمجد عصورك ، بل أشرق عصور البشرية ، قد تحولت بفضـل غالى ومن علموه •• الى مواخير ودعارة [2] •

ويقرر فى ثقة العالم : « سهولة الطلاق ، والفساد الذى يحيق بالرجل والمرأة من جرائه » [3] •

أرجو أن يكون قد سـمع بمنزل الدكتور وارد وما به من مرايا • والفساد الذى حاق فيه بالمرأة والرجـــل •• رغم صعوبة الطلاق •• بل ومن جراء هـــذه الصعوبة ، كما يقرر أى باحث اجتماعى منصف •

ويعود غالى شكرى فيقرر «الطلاق وتعددالزوجات وما يتبعهما من علاقات كالزنا والبغاء » [4] •

---

(١) ص ٦٨ ـ ٦٩ •
(٢) الغريب أنه يشهد لنا بميراث المواخير والدعارة وينكر علينا التأثر بالاسلام •
(٣) ص ٦٩ •
(٤) ص ٦٩ •

بديهية صليبية ينطلق منها سيادة الناقد •• الطلاق وتعـــدد الزوجات يعنى مجتمع بغايا وزناة !! هكذا نســـمح لناقد أن يسم شرف أمتنا •

لا أدرى ولا أظن أن الزنا والبغاء فى القاهرة يفوق مثيله فى روما حيث الدين الكاثوليكى يحرم تعدد الزوجات ، ويصعب الطلاق بل يحرمه ؟!•

لا أريد أن أجرى وراء الاحصائيات •• كل ما يعنينى هنا ، أن ناقدا يزعم التحرر والتقدمية ، يسود صحائف يطبعها فى بيروت •• لطعن النظام الاجتماعى فى الاسلام،ووصمه بالفسوق والفحش ، مرددا الحملة الصليبية التافهة حول نظام الزواج فى الاسلام •

ولا أدرى لماذا لم يكلف نفسه عناء دراســة العلاقة الجنسية فى ظل الاســـلام ، ليكتشف أنها قد وصلت الى قمة من الســمو والانســانية ، القائمة على التكافؤ والاختيار الحر •• وأن الدول المتمدينة التى فتنه بريقها ـ ان كان حسن النيــة ـ تســعى جاهدة للوصول الى علاقات زوجية كتلك التى أقامها الاسلام •• ولا أدل على ذلك من رضوخ حتى الكاثوليك لحق الطلاق ••

الأصل فى الاسلام ـ كما قلنا ـ أن الانســان حر الارادة ، وأنه يملك دائما أن يخطىء وأن يصحح خطأه •• فهو سيد مصيره •• وقرارات الانســان كلها انسانية •• وعلاقاته كلها انسانية ••

تستمد قوتها من طابعها الانسانى ، وتنهار بارادة الانسان •• ليس فى ديننا شىء يعقد على الأرض فلا ينفصم الا فى السماء •• وليس فى شريعتنا عـــلاقة بين اثنين تسجل فى السماء •• حتى يستحيل علينا الخلاص منها !

نحن نتزوج بارادتنا ، وبتعاهدنا •• لا برباط يعقده كاهن•• وعندما يستحيل علينا العيش •• ننفصل ••

نعم !•• نعيش معا بارادة حرة••ولأننا نريد ذلك••وباختيار حر لا تكفيرا أو عقوبة عن قرار خاطىء اتخـــذناه •• ونبقى أبد العمر نرزح تحته •• لا •• نحن دائما نملك أن نبدأ من جديد•

ولست أدرى كيف توصـــل الناقد الى أن يرمى أمهـــات المســـلمين بالفاحشة من فرضية أن سهولة الطلاق يتبعها فســـاد وبغاء ؟!•

الأعقل •• أن البغاء يتبع علاقة غير متكافئة بين رجل وامرأة يرزحان تحت قيد زوجي لا سبيل الى الفكاك منه •• لا رجـــل وامرأة يملكان الانفصال •• بل كيف يمكن أن تنشأ الحاجة الى الزنا أصلا فى مجتمع ، لا حائل فيه بين أى رجـل وأى امرأة ، لكى يقيما علاقة جنسية شرعية فيما بينهما •

بالطبع هناك حالات زنا فردية •• وعابرة •• تنشأ بين أفراد

لا يفكرون فى العلاقة المستمرة •• ومثل هذه الحالات لا دخل لها بنظام الطلاق اباحة وتحريما [١] •

---

(١) فى دراسة نقدية للدكتور لويس عوض عن مسرحية برنارد البا يغمز بقوله ان الرواية تدور فى المجتمع « الاندلسى » حيث يرجم الزانى • تفسيرا للحياة المتوحشة التى تحياها عائلة برنارد البا •• ولا شك أن الدكتور لويس يعلم أن المجتمع الاندلسى كان أكثر تحررا وانسانية من أسبانيا الكاثوليكية •• وأن رجم الزناة لم يبتدعه الاسلام ، بل جاء فى التوراة والانجيل •• وبدلا من التعريض بالحضارة الاندلسية ، والجرى وراء السخف القائل بأن تخلف اسبانيا والبرتغال هو ثمره الحكم العربى •• بدلا من ذلك أليس الاكثر علمية •• أن يدرس آثار الحكم العربى التى جعلت اسبانيا والبرتغال أول الدول الأوربية دخولا فى عصر النهضة حتى امتصت دماء الحضارة منها محاكم التفتيش •• بل لماذا لا نتأمل كلمات « كلودفارير » عضو الاكاديمية الفرنسية يقول : فى عام ٧٣٣ ـ ميلادية ألمت بالانسانية كارثة ، قد تكون أكثر الكوارث شؤما فى العصر الوسيط كله • وقد غرق فيها العالم الغربى ، طوال سبعة قرون أو ثمانية ، فى مهاوى بربرية كان عصر النهضة قد بدأ يبددها والتى قواها عصر الاصلاح من جديد •• هذه الكارثة التى أكره حتى ذكرها ، هى الانتصار المقيت الذى أحرزه قرب بواتيه ، متوحشوا الهاركاس من محاربى الفرانك بقيادة الكارولنجى شارل مارتل ، على الكتائب العربية والبربرية التى لم يعرف الخليفة عبد الرحمن أن يحشدها بما يكفى ، فتراجعت وفشلت ، لقد تقهقرت المدنية فى هذا اليوم المشئوم ثمانمائة عام • وذلك أنه يكفى أن يكون الانسان قد شاهد حدائق الاندلس ، أو البقايا المدهشة لعواصم السحر والحلم اشبيليه غرناطة ، قرطبة ، طليطلة ، لكى يستشف ، فى دوار معجز ، ما كانت قد آلت اليه فرنسا ، وقد خلصها الاسلام الحاذق ، الفيلسوف ، المسالم ، السمح ـ الاسلام هو هذا كله ـ من أهوال لا تسمى ، اجتاحت على الأثر بلاد الغال القديمة ، التى خضعت بادىء الأمر للعصابات الاوسترازية الوحشية ثم جزئت ومزقت وأغرقت فى الدماء والدموع ، وأفرغتها من الرجال الحروب الصليبية ، واتخمت بالجثث من جراء حروب كثيرة أهلية وأجنبية ، فى حين كان العالم الاسلامى ، من الوادى الكبير الى الآندوس ينمو وينتصر بسلام ، فى ظل الأمويين والعباسيين والسلاجقة (لا مواخير ولا دعارة ؟!) •

=

لو كان الناقد ثوريا •• أو نزيها •• أو متحررا يعتز بنسبته لهـــذه الأمة •• لاكتشف فى العلاقات الشخصية فى الاســـلام ما اكتشفه ثورى أعتذر له أننى أحضره كشاهد فى معرض الرد على ما نحن فيه •• ذلك الشاهدالثورى •• هو عمار أوزيجان ، واليكم كلماته :

« ان هذه الفوضى الأخلاقيـــة المسببة للجريمة (الزنا) غير واردة عندنا ، ليس لأن ابليس عاجز عن اغوائنا فى حين ينجح فى جر الملائكة الى الهاوية••كلا •• وانما لأن تأثير محيطنا الاجتماعى يســـاعدنا على مقاومة أنفسنا وغرائزنا السفلى •• وأيضـــا بسبب الزيجات المبكرة والمرتفعة النسبة •• وأخيرا بفضل البســاطة التى يتم فيها الزواج والطلاق سواء بسواء » •

كيف وصل أوزيجان وغالى •• من نفس المقدمة الى نتيجتين متعارضتين تماما ؟!

لأن الأول أنار بصيرته وعى الثوار وشرف الأحرار•• وربته ثورية الشعب •• والثانى أعماه التعصب والتبعية •• وربته مدارس

= سأسأل فيما بعد هؤلاء الفرنسيين (يقول الكاتب الفرنسى) ماذا يفكرون فى انتصارنا عام ٧٣٢ على المسلمين ؟ وعما اذا كانوا لا يحكمون معى أن هذا الانكسار الذى أصاب شعبا متمدنا على يد شعب بربرى كان ، بالنسبة للانسانية جمعاء ، مصيبة كبرى ؟! والمصيبة الأكبر أن يأتى كتابنا ليفركوا أيديهم **شماتة فى الهزيمة** الاسلامية • وانى أقتبس هنا من عمار أوزيجان •• استشهاده بالمثل الجزائرى (ما بينكر أصله غير البغل) •

التبشير •• الثانى ماركسى أنكر ماركسيته ليخرج من السجن •• وليس له يوم يفخر به ضد الاستعمار •

والأول زعيم ماركسى ، تخطى الماركسية الى آفاق ثورية جديدة ، وخرج من السجن الى الوزارة بعد أن حمل السلاح ورد مع رفاقه الى ١٢ مليون حريتهم وعروبتهم بفضل اسلامهم الذى أصروا عليه •

نعود لغالى شكرى

الغريب ـ ولا غرابة ـ أن هذا الكاتب الذى يضيق بزواج الرجل بأربعة ، وسهولة الطلاق ، يمتدح فى أول دراسته المشاعية الجنسية ، ويربط فى سخف بين الملكية الجماعية لوسائل الانتاج والزواج الجماعى •• ويقول : « تلا ذلك مرحلة الزواج الجماعى فى ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج (كأن المرأة ضمن وسائل الانتاج) فلم تبرز العلاقة الجنسية كمشكلة بين الأفراد (بالطبع ما دام الجميع يتسافدون كالحمير) وان صلحت للتعبير عن حاجتهم المشتركة الى الخصب والنماء فى بقية أشكال الحياة الانسانية ومقوماتها »[1] •

ثم ينتقل الى الزواج الحالى « فما أن دخل المجتمع الانسانى فى مرحلة جديدة فى ظل الملكية الفردية لوسائل الانتاج » •

« ومن الواضح أن المرأة أصبحت فجأة (لا أدرى كيف يصبح ذلك فجأة •• فالذى يحدث فجأة هو انقلاب سيارة •• أو

---

(١) ص ٢٤ •

تقيؤ فكر فاسد .. لا تطور اجتماعي يستغرق آلاف السنين) في وضع مهين ، لأن المساواة الاقتصادية بينهما تخضع لاعتبارات لم تكن موجودة من قبل » .

ولا أدري هل بدأت المرأة تحبل وتلد بعد ظهور الملكية الفردية فقط .. وفي ظل الشيوعية البدائية كان الرجل والمرأة يلدان على قدم المساواة ؟! ألم تكن حاجة المرأة الى من يطعمها ويحميها ستة أسابيع على الأقل - لضرورات بيولوجية قبل أي نظام اجتماعي..تحتم وجود فارق بين دور المرأة والرجل في الانتاج؟!

يقول الناقد « بل ان هذه العلاقة خرجت بالتدريج أيضا من حدودها الطبيعية التي كانت تعتمد على مجرد الرغبة والتوافق بين اثنين »

هل الزواج الجماعي .. أو زواج القطيع.. يقوم على الرغبة والتوافق بين اثنين ؟

هل يمكن وصف العلاقة الجنسية بين الماعز .. بأنها رغبة وتوافق بين جدي بعينه وعنزة بعينها ؟!.

ولماذا يغضب هذا الأسف على الزواج الجماعي .. من تعدد الزوجات وسهولة الطلاق ؟ الا لغرض في نفس يعقوب ؟!.

وهل ترك لنا يعقوب .. فرصة الظن .. ؟

في دراسة تضليلية عن سلامه موسى يقول : ولاشك أن هذه

المظاهر المختلفة : الطلاق ، البغاء ، الزنا ••• تنخر فى عظـــام المجتمعات العربية »[1]

« واما الطلاق فى مجتمعاتنا العربية ، فانه يستند على قوى كبيرة ، بجانب قوى التاريخ ، تلك هى «الكتب الدينية» التى مايزال أثرها قويا فى تشكيل مظاهر حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية • وكتب الأديان جميعا هى تعبير عن مجتمعات سابقة ، لاشك أنها عبرت فى صورة صادقة عن تلك المجتمعات ، ولكنها ـ فى هذا الاطار ـ لن تستطيع وحدها أن تخدم مجتمعنا الحديث »

أهذا حديث يقصد به الزواج والطلاق وحدهما ؟!

يقول : « وحين قالت الاديان بالطلاق أيضا ، (لا حظ أن الاسلام هو وحده الذى قال) كانت تعبر عن هذه العبودية فى شكل آخر ، هو « حرية » الرجل فى « الانفصال » عن المرأة » •••

« والأسرة العربية ضربت رقما قياسيا فى الطلاق ، لأنه يتاح للرجل أن يرمى بزوجته فى عرض الشارع ، لمجرد أنه ألقى عليها « اليمين » ربما فى غرزة حشيـــش أو « عشرة طاولة » وهى فى بيتها لا تعلم انها أصبحت « حراما » على هذا البيت !

« وليس معنى ذلك ، أن نمنع الطلاق ـ كما تفعـل الكنيسة الكاثوليكية ونضع رأسنا فى الرمال كالنعامة • وانما يجب أن نبحث ظروفه الجذرية ، ونجرؤ على العلاج الجذرى »[2] •

(١) ص ٢٠٨ كتاب « سلامة موسى وأزمة الضمير العربى » غالى شكرى •
(٢) ص ٢٠٨ نفس المصدر •

وهو يترك لنا مهمة التفتيش عن الجذر فى بطن الشاعر ••

واذا علمنا أن قائل هذا الكلام ينتمى الى مذهب مسيحى غير كاثوليكى يبيح الطلاق فى حدود وقيود •• عرفنا ان هذا الكلام لا يزيد عن كونه تبشيرا رخيصا لهذا المذهب •• وعرفنا زيف كل هذا الحديث عن تطور المجتمعات ، وادعاء حرية التفكير ، وأن هذا المستوى فى التهجم على نظام الزواج فى الاسلام ، لاينبعث من شعور لادينى ، ولا من حرية فكر مزعومة ، بل من تعصب لمذهب دينى بعينه ••

وينسى أنه يكتب ، لينشر ما يكتبه على ملايين المسلمين •• فيقول : « والحديث عن أثر الدين فى المجتمع ، يجرنا الى ظاهرة تعدد الزوجات المتفشية فى مجتمعنا •• (الاحصائيات الرسمية تقول انها تتراوح بين نصف فى المائة وثلاثة فى الألف) وبنظرة سريعة الى تطور التاريخ البشرى ، نلحظ أن الرق كان بداية عصر «تعدد الزوجات » فالمجتمع المشاعى الأول لم يكن قائما على « وحدة الزوج » ، وانما هو المجتمع العبودى الذى حط بمكانة المرأة •

« فاذا جاءنا كتاب دينى ، ليصور ذلك المجتمع البعيد ، وجب أن ندرسه من هذه الزاوية التاريخية (!!) لا أن نطبق تلك القيم بصورة آلية على حياتنا الحديثة ، وكأننا نقوم بعملية انتحارية نهدف منها ان نزج بقوام مجتمعنا الكبير داخل صناديق حديدية صغيرة ، لاتتسع الا للدمى ، فما كان يتسع لطفولة الجنس البشرى ، لاريب أنه يضيق عليه فى شبابه •

« ونحن لا ننسى، انه يوجد بيننا «رجال دين» أى كهنة (!!) ، يرون من مصلحتهم البقائية ، تجميد مجتمعنا أو تحنيطه فى تلك الأطر العتيقة .

« ولكن التقدم العلمى لايتيح لنا أن نقبل هذه الأيدى وننحنى لأصحابها، وانما يجب أن ندفن الكهنة بصناديقهم فى متحف تاريخنا. فليس مما يتلاءم مع طورنا الصناعى الوليد ـ حيث تنال المرأة قدرا من الحرية الاقتصادية أن تبقى فى هذا الوضع المهين، الذى يسمح لزوجها ان يحيل بيته الى فراش مكيف لعدة نساء فى وقت واحد ، ويضىء له النور الأحمر كتاب السماء » .

« ان المرأة الجديدة لن ترضى بهذا الهوان ، وستعطل النص الكهنوتى بحركة ذاتية ، لأن الرجل ـ فى أزمة الرأسمالية المعاصرة ـ لن يقوى بدوره على ارتداء هذا الزى الأثرى .. زى هارون الرشيد »[1] .

اذن .. فتعدد الزوجات الذى يبيحه الاسلام هو مظهر للعبودية .. والقرآن الذى أباح تعدد الزوجات هو «كتاب دينى يصور المجتمع العبودى » وواجبنا ـ كما يعلمنا ـ هو « دراسته تاريخيا » لا أن « ننتحر » بمحاولة زج مجتمعنا الكبير فى القمقم الصغير الحديدى الذى لا يتسع الا للدمى ، وهو الدين الاسلامى !.

(١) ص ٢١٠ ـ ٢١١ نفس المصدر .

والمسلمون •• كهنة يجب دفنهم ••

« وشريعة الاسلام » أطر عتيقة •• والمرأة المسلمة فى وضع مهين ! •• « والقرآن » يضيء النور الأحمر للرجل فى الفـراش المكيف ••

وآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » نص كهنوتى •• يبشرنا غالى شكرى أنه سيعطل ••

واذا ظن البعض أن حرية الفكر أو حرية العقيدة تبيح ترديد هذه الأقوال عن دين المسلمين : دين الغالبية العظمى، فى الندوات الخاصة للمبشرين ••فما من أحد ـ مسـلم أو مسيحى ـ يرضى أن يكتب هذا الكلام وينشر على الخاصة والعامة بلا تمييز •• خاصة وقد كشفنا ان رداء حرية الفكر الذى يتلفح به قد خرق من كل شبر فيه •• وأنه ليس الا مبشرا لكنيسة بعينها ••

هل ترضى أيها العربى •• مسيحيا كنت أو مسلما •• ان تقال هذه العبارات : « وهيكل يدع جان جاك روسو جانبا ويهرول الى التاريخ الاسلامى يجتر منه أفكارا بالية • » [1] •

الأفكار البالية التى اجترها هيكل هى : « حياة محمد صلى الله عليه وسلم » •• و « فى منزل الوحى » •• أترضى أيها العربى ـ مسيحيا كنت أو مسلما ـ ان يقال عن « حياة محمد » « وفى منزل

---

(١) ص ٢٠ نفس المصدر •

الوحى » أنها أفكار بالية ؟! هل ضربت علينا الذلة والمسكنة ليقال عن تاريخنا ونبينا هذا الكلام ؟! ..

وغالى شكرى ثائر على كل ما يمت للاسلام بصلة .. فى دراسة لأدب « عبد الحميد جودة السحار »[1] يتهمه بأنه من الفريق الذى يخشى الثورة « لأنه يخاف على ما فى جعبته من قيم قديمة من المثاليات والأديان والسماويات» والى هذا الفريق يقول غالى شكرى: « تنتمى أول مراحل القصاص عبد الحميد جودة السحار التى ظلت كثيرا من رواسبها عالقة بانتاجه الأدبى حتى أحدث مراحله .. ويكفى أن نلقى نظرة خاطفة على قائمة مؤلفاته الدينية لكى تتضح اهتمامات المؤلف وندرك جوهر ما يؤلف » .

ثم يستعرض « جرائم » المؤلف ، أو دليل تخلفه ، الذى يبيح له الحديث عنه بهذه اللهجة بمجرد النظرة الخاطفة .. من هذه المؤلفات - يسجل غالى شكرى : بلال مؤذن الرسول ، سعد بن أبى وقاص ، أبناء أبى بكر الصديق ، أهل البيت ، قصص من الكتب المقدسة ، قصص الأنبياء ، قصص السيرة النبوية ٢٤ قصة .. قصص الخلفاء الراشدين ٢٠ قصة .. الخ .. الخ .. »[2] ويكمل « ولست أريد أن أحصى عدد الآيات القرآنية التى تخللت الأقصوصة »[3] .

---

(١) لسنا ندافع هنا عن الجانب الفنى فى أدب السحار .
(٢) ص ٢١٠ .
(٣) ص ٢١١ .

يحـاول أن يقلد سـلامة موسى عندما انتقد عبقريات العقاد ، ناسيا أن كتابات سلامة موسى ، قد انتهت بوفاته ، وأن ما بقى منها ، ان كان يجـذب اهتماما ، فكما يهتم الباحثون برسومات الأطفال ، ندهش من قدرتهم على التعبير ، ولكننا لا نتخذها أبداكمقياس لفنون الكبار أو نموذج يحتذيه الدارسون .

ناسيا الفارق الضخم بين يومنا .. والأمس الذى عاشه سلامة موسى .

كان المجتمع المصرى أو المجتمع العـــربى بصفة عامة تحكمه رجعية تستغل الدين .. وكان هجوم ســـلامة موسى على الدين ، يغتفر فى ظل الحقد العام على الرجعية .. كنا مشغولين فى حربنـا ضـد شيوخ الأزهر الذين يخدمون الملك .. عن أن تنتبه لطعنات سلامة موسى التى توغل فى اللحم الى أبعد من قشرة رجال الدين المتهرئة . كنا مشغولين لدرجة اننا لم نتوقف لنرد سلامة موسى عن هجومه وطعنه فى فخر أمتنا .. عبد الرحمن الجبرتى ، الذى عيره سلامة موسى بأنه شيخ أزهرى .. كأنها سبة .. لأن الجبرتى هاجم المتعاونين مع الاحتـــلال فى جيش الخائن الجنرال يعقوب . بينما كان الجبرتى أرحب صدرا منه ، فلم يتردد فى نقد علماء الاسلام الذين تخاذلوا أمام المحتل ..

كنا مشغولين بحربنا ضـد الأزهر الرجعى والاقطاع المستغل للدين عن أن نلتفت لغمزات سلامة موسى ، والتى لا يمكن تفسيرها

أو تبريرها •• ولو كانت تشنجات عصبية من متعصب لأمكن فهمها •• أما أن تصدر عن كاتب كان يفاخر بأنه لا دينى •• وهو كذلك فعلا •• فأمر يحتاج لتفسير •• ويستحيل على التبرير •

ثم أن يأتى آخر بعد أن تحررت بلادنا ، بعد أن أصبح لدينا رجال دين أحرار••بل بعد أن أصبحت معركة تحرير أفريقيا •• كما يشهد كتاب الغرب أنفسهم •• هى معركة الاسلام ••

وفى وقت تبذل الدولة وحكومة الثــورة ، الأموال لطبــع المصحف وتسجيله ؛ وتعمل ليل نهار لاصلاح الأزهر حتى يضطلع بمسئولياته الكبرى •• وفى الوقت الذى يحشـــد فيه الغرب كل أسلحته ، ودعايته لمحاربة الاسلام فى أفريقيا •• باعتبــاره الخطر المباشر على نفوذه الاســـتعمارى •• ولا يجد الغرب الا الأكاذيب العفنة يرددها عن حكاية تعدد الزوجات والطلاق والرق••ويروج بيننا فى خبث ، دعوة لتقدمية زائفة ، تدعونا الى أن ننفض عنا ديننا •• لأنه من القيم القديمة !!

فى مثل هذه الظروف •• لا يكون ثوريا من يهاجم الاسلام، ولا تقدميا من يعرض به••بل انى أتهمه بخدمةالأهدافالاستعمارية فى الوطن العربى •• وأفريقيـــا •• لا فرق بين جهوده وجهــود المبشرين الاستعماريين الذين يتآمرون على وحدة السودان،والذين يثيرون المتاعب للحكم الوطنى فى أفريقيا السوداء •

وليس من المعقول ولا من المقبـــول ، أن نسكت على كاتب

يحـــاول أن يسخر من مؤلف مســلم لأنه يكتب عن « بلال مؤذن الرسول » .

لو كان الناقد ثوريا ، تقدميا ، تعنيه قضية تحرير أفريقيـا ، ويقف الى جانب شعوبها فى معركة تقرير المصير .. لبذل سنوات من عمره فى دراسة هذه الشخصية الفذة .. بلال .. الأفريقى .. الأسود..الذى آمن بالاسلام دين المساواة ، فاستمد منه قوة قهرت أسياده ، واستطاع أن يصل تحت ظلال الاسلام الى الصف الأول .. وكان له الفضل والسبق على سادة قريش جميعا [1] ..

لو أنه بذل جهدا فى تعريف الافريقيين ببلال مؤذن الرسول .. بدلا من الاستشهاد به للتعريض بالقصـــاص العربى ، بل وأن تكون الكتابة عن هذه الشخصية مثارا لحقده ، الى حد اســـتدعاء الشرطة للقبض على القصاص بتهمة معاداة الثورة أو عدم التجاوب معها .. كأنه هو .. المعجب بحضارة طرازان .. ثورى ؟!.

وانه لما يشرفنى أن أكتب هذه الكلمات قبل أن أقرأ لعمار أوزيجان ، وصفه المبدع « لموسم سـيدى بلال » والذى يحتفل به شعب الجزائر .

يقول الثـائر الجزائرى : « كان موسم سيدى بلال ، طوافا سنويا أخاذا يقوم به المسلمون السود فى الجزائر .. ومن أجـدر بلعب هـذا الدور الرمزى من سيدى بلال العبد الافريقى المعتق ،

(١) أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا .. (عمر بن الخطاب يعنى بلالا) .

رفيق النبى ومؤذنه » •• « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعـربى على أعجمى ، الا بالتقوى •• كان الاسم الرمزى لبلال بن رباح يعكس النزوع الى المساواة عند الشعب الأسود •• وكان يتخذ شهادة على ايمانه ، يذكر العالم الاسـلامى كل يوم ، المؤذن الأول الذى كان يمكن لشاعر كايميه سيزيز أن يغنى « العبدية برائحتها الشهية ، برائحة البصل المقلى » مضيفا الى ذلك عسل الحرية وعطر الاخوة فى المدينة المنورة •• والواقع أن اسم سيدى بلال مقترن بالأذان •• هذا النداء الرخيم الذى يحرك الروح وهو يصاعد من المـآذن معلنا الصلوات الخمس اليومية ••» ثم يورد عمار نص الأذان [1] •

عمار أوزيجان •• ليس من مشايخ الطـرق الصوفية ، بل قاهر فرنسا •• وأحد بناة الاشـتراكية فى الجـزائر •• ومع ذلك أرجو من السـيد غالى أن يكلف خاطـره ويحصى عـــدد الآيات القرآنيـة والأحاديث النبـوية فى كتاب أوزيجان •• وليثـق أنه لا يصل الى أن يجلس مجلس أصغر التلاميذ فى حضرة أوزيجان من ناحية الثقافة الغربية •

لماذا نضـحك فى كمنا عنـدما نؤلف عن بلال •• ونركع فى خشوع عندما يؤلف الآخـرون عن جان دارك •• لمـاذا يثيره أن

---

(١) الجهاد الأفضل ص ٩١ •

يحصى الآيات القرآنية فى قصة •• ولا يحصى آيات الانجيل فى خطب وكتابات لينين وستالين مثلا !

ويصف أسلوب السحار بالسذاجة قائلا : « ان هذه السذاجة كانت تتوارى بين حين وآخر كلما تخلص الكاتب قليلا من عواطفه الدينية تحت ضغط الأحداث ، واصرار النماذج البشرية على أن تبدو انسانية حقا •• » .

كأن العواطف الدينية تحجب الانسانية !

ثم يتولى وعظنا :

« فلم تعد حضارتنا قاصرة على كتب الدين ، كهدية نقدمها الى أوروبا لنجذبها من حظيرة الشيطان الى حقل الايمان •• ان أوروبا تنفق ملايين الجنيهات على الكتاب المقدس والفلسفات اللاهوتية ومعاهد التعليم الغيبى ، وهى اذن •• ليست بحاجة الى أنبياء جدد من الشرق •• ولم يعد الشرق نفسه شرقا •• انه يستطيع الآن أن يضيف الى الحضارة الانسانية شيئا جديدا غير الرسالات السماوية ، شيئا يرتفع الى مستوى العصر ، فى النقد العلمى والضميرى معا »[1] •

قد تبدو أنها كلمات عقل مختل يستخلص من مقدمات صحيحة نتائج مغلوطة •• ولكنها منطق رجعى معاد لوجودنا وقوميتنا •

---

(1) ص ٢٢٩ •

الناقد معجب بالحضارة الأوروبية ، وهو يشهد أن أوروبا المعاصرة تنفق ملايين الجنيهات فى طبع الكتب المقدسة ومعاهد التعليم الغيبى والفلسفات اللاهوتية •• فلماذا بالله وبالشياطين لا نفعل نحن ؟! •• الا اذا كنا حريصين على عدم اعتراض سبيل اللاهوت الأوربى •• والشوشرة عليه ؟! هل تقر أعيننا لأن أوربا تنفق الملايين على طبع كتابها المقدس ؟ •• لماذا لا تنفق نحن على الدين وعلى كتابنا المقدس كما تفعل أوروبا الذرة •• أوروبا الصواريخ وغزو الفضاء •• لأن أوروبا لم تجد ناقدا مثقفا واعيا تقدميا مثل غالى شكرى يردها عن الغى الذى تتردى فيه ••• بينما رزئنا نحن وحدنا بهذا الناقد !

ومتى كانت حضارتنا قاصرة على كتب الدين •• متى ؟ •• يوم انتشرنا نحمل كلمة القرآن من طنجة الى بكين •• يوم صدمنا أوروبا الغارقة فى هاوية التخلف وظلمات الجهل •• يومئذ لم تقتصر حضارتنا على كتب الدين بل نشرنا كتب العلم ، وخلاصة الفكر الانسانى •• فلما هوت حضارتنا •• لم نعد نصدر لا دينا ولا دنيا •

وهل صحيح أن الشرق لم يقدم سوى الرسالات السماوية [1] ، وأن النقد العلمى والضميرى ، الذى يرتفع الى مستوى العصر

(١) الرسالات السماوية لا ترتفع الى مستوى العصر !! ربما كان نقد السيد غالى هو الذى يرتفع ؟!

لا يتأتى الا اذا طرحنا عنا •• الرسالات •• أكان منهاج ابن خلدون الا ثمرة العقل الاسلامى •• والكندى وابن سينا وابن طفيل وابن رشد كل زهرات الشرق تنكرها بأنفك المزكوم !

اسمع رد عمار أوزيجان •• « انكار وجود فلسفة انسانية ، ودينية ، هو طمس لكل ما قدمه عرب الأندلس خلال نصف قرن، هؤلاء الزارعون الذين قدموا القمح الاسود ، الثقافة ، الرى ، الطب ، الصيدلة ، الفلك ، الهندسة ، صناعة الحرير ، والصياغة ، والتسامح ، والتعايش السلمى »[1] •

اذن •• ليست الرسالات السماوية وحدها هى ما تصدره حضارتنا •• والشرق الذى سيبقى شرقا ، وستخيب كل محاولات الصليبية التى تأمل دائما أن يصبح ليس شرقا •• وان آمنت هى وبشرت بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا •

ويظن غالى شكرى ، أنه قد افترس عبد الحميد جوده السحار وما يمثله عبد الحميد فيمعن طعنا وتجريحا •

« الاقتباس من القرآن يذكرنا أكثر فأكثر أن السحار ظاهرة أدبية ، تمثل رد الفعل العنيف لتطورنا الحضارى ، من جانب القيم القديمة •• كما أنه رد فعل طبيعى لأكوام الأدران الصفراء [2] •

---

(١) ص ٥٣

(٢) ص ٢٣٠

ماذا نقـول لمن يسمى قـرآننا •• قيما قديمـة •• وأدرانا صفراء ؟!

أنقول مع العجزة •• حسبنا الله ونعم الوكيل ••• الله ينصر دينه •• ؟

•• لو أن رينان هو الذى يقول هذا يسنده جيش احتلال•• وأساطيل أوروبا العظمى تزمجر عند الثغور •• لقبلنا الشهادة دفاعا عن الحق •

أما اليوم ، وقد كسرت ثورتنا والثورة الجزائرية ، ووجود الرئيس عبد السلام عارف ، العمود الفقرى للاستعمار الصليبى •• فاننا نقول الاقتباس من القرآن ليس ردة •• والأدران الصفراء هى ما كتبت وما طبعوا لك فى بيروت •• ولو على ورق أبيض •

اسمع أوزيجان : « تستعجل العقلية العصرية كثيرا فى توديع الأديان كلها توديعا مأتميا ، دون أن تدرك أن الأيدلوجية الاسلامية ليست محتضرة ، بل فى كامل اندفاعها وحركتها » •

« ما أكثر الذين انتقـدوا الاسـلام دون أن يعرفوه •• انهم يشاركون فى الجهل رينان » •

وعلى ذكر بيروت التى طبعت كتـاب غالى ، أقول ان له فى كتابه هذا •• رأيا جديرا بالتأمل ، عن لبنان •• ولو أنه منطقى من

أمثال هذا الناقد •• فهو حريص على أن يؤكد وجود فارق بين لبنان ومصر ينعكس فى اختلاف أدبهما •• وبين لبنان والأدب العربى كله ، ويتفق فى ذلك مع الدعوات الاقليمية •

الفارق الذى يكتشفه الناقد •• فارق دينى •• رغم كل ما سوده فى « تنفيه » شأن الدين •• فهو يقول : « فلو بحثنا عن السمة الغالبة على الأدب اللبنانى لاكتشفنا أنها ليست تماما هى السمة الغالبة على الأدب المصرى رغم القرابة التاريخية التى تربط المجتمعين »[1] •

تأمل حكاية القرابة التاريخية •• ثم اقرأ : « لا نعثر على هذا الاحساس المسيحى الحاد بالخطيئة فى غير لبنان ، ولكنه يعتبر من الخصائص المميزة لأدبه »[2] ••

اننا رغم رجعيتنا••وايماننا••نرفض القول بلبنان المسيحى•• ونرفض أيضا قوله : « أمتنا العربية التى ما تزال فى دور التكامل والتكوين »[3] •

وهو هنا ببغاء يردد قول الشيوعيين الفرنسيين عن أمة اكتمل

---

(١) ص ٧٠ لاحظ تناقض ذلك مع مقاله فى مجلة الكاتب الذى يؤكد فيه الروح فى مصر •• لتعرف أنه لا يتبع منهجا •• بل حرب صليبية حسبه أن يطلق فى كل مناسبة قذيفة •

(٢) لو اهتم فى دراسته المغرضة عن أدب احسان عبد القدوس بقراءة قصة لا تطفىء !! لوجد هذا الاحساس المسيحى •

(٣) ص ١٦٤ •

تكوينها قبل أن يتشكل غالى شكرى وزعماء الحزب الشيوعى الفرنسى ، فى الأرحام •

واذا كان شكرى غالى قد لمس احساس اللبنانيين الحاد بالخطيئه النابع من مسيحيتهم •• فاننا نرجو له ــ وهو الناقد المسيحى ــ أن يحس بجرم ما ارتكب من خطيئة، اذ سود هذه الصفحات ضد تراث أمته •• والا فما تراثه ان كان عربيا ؟!

وأحب قبل أن أنهى حديثى عن غالى شكرى أن أناقش هنا بعض الآراء التى روجها فى مجلة الكاتب عدد سبتمبر•• فى دراسة عن التراجيديا المصرية زعم فيها أن أبا نوفر هو أول بطل تراجيدى •• ولكن ما يعنينا فى هذه المقالة المتعددة الطعنات •• هو طعنه فى الاسلام بمثل هذه الآراء :

« أما القضية الرئيسية فى الاسلام ، فهى العلاقة بين الانسان والله • وهى علاقة قائمة على أساس التسليم بالحقيقة الالهية «فالمعرفة ليست غاية على الاطلاق » وعلى الانسان أن يذعن لما « يمكن » أن تقدره المشيئة الالهية دون أن يساوره الشك فى عدالتها وصواب حكمها » [1] •

حكاية القدر فى الاسلام ، والتهويل فيها ، شنشنة صليبية نعرفها فى كتاب الغرب من الدرجة الثالثة •• ولا نأبه بها •• فنبينا

(١) ص ٥٣ •

لم يستسلم للقتل .. بل حفر خندقا يقيه هجوم الأعداء ، وأرسل جنوده ليلا ليغتالوا الأعداء .. واتقى الصحابة السهام عنه بظهورهم .. واحتال ببراعة ليفلت من حصار المشركين ليلة الهجرة .. حتى معجزاته ، ليس فيها هذا القدر الخرافى ، كما يصوره الغربيون ، فلا بد من نسيج عنكبوت وبيض حمام عند مدخل الكهف ليمنع المشركين من الدخول عليه صلى الله عليه وسلم .

ليس فى ديننا استسلام بليد للقدر . ولا خضوع ذليل لتصاريفه . بالعكس .. لأنه مكتوب على ابن آدم .. انه لا يعرف الغيب .. فان عليه أن يسعى بكل ما يستطيع لصنع مستقبله .

أما موقف المسلمين من المعرفة .. فسأرد عليه من كتاب قدرى حافظ طوقان .. « مقام العقل عند العرب » .

قال العلاف [1] : « ان معرفة الله تعالى ومعرفة الدليل الداعى الى معرفته تتم بضرورة العقل » .

وفى رسالة الكندى للمعتصم « ان أعلى الصناعات الانسانية وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة .. ولماذا ؟ لأن حدها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان . ولأن غرض الفيلسوف فى علمه ، اصابة الحق . وفى عمله ؟ العمل بالحق » .

---

(١) من أئمة المعتزله .

« وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وان أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فانه لا شيء أولى بطلب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتى به • ولا أحد بخس بالحق • بل كل يشرفه الحق ••»

العاقل من يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة والجاهل يظن أنه تناهى فتمقته النفوس لذلك •• »

وتعرض الفارابى لنظرية المعرفة ، وقد أودع بعض عناصرها متفرقة فى كتبه ورسائله [1] •

وكذلك يرى الفارابى أن الدين والفلسفة لا يتناقضان، وليس بينهما من اختلافات جوهرية • ذلك لأنهما يتفرعان من أصل واحد يحوى المعرفة والحق والحياة ـ وهو العقل الفعال •

« ويرى الفارابى أن أكمل اجتماع انسانى هو الاجتماع الذى يشتمل على جميع أمم الأرض » ويرى الدكتور جميل صليبا أن الفارابى بمدينته كان أوسع أفقا وتصورا من فلاسفة اليونان » [2] •

وفى رسالة سماها « النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم ، بين فساد علم أحكام النجوم الذى يعزو كل ممكن وكل

---

(١) ص ١١٦ مقام العقل عند العرب •

(٢) ص ١٢١ نفس المصدر •

خارق الى فعل الكواكب وقراءاتها .. » لأن الممكن متغير لا يمكن معرفته معرفة يقينية .

وانتهى الفارابى من هذا كله كما يقول دى بور .. « بأن هناك معرفة برهانية يقينية الى أكمل درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى .

أما دراسة خصائص الافلاك وفعالها فى الأرض فلا نظفر منها بمعرفة ، ودعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق منا الا الشك والارتياب [1] » .

ونفى ابن سينا امكان تحويل الفلزات الخسيسة الى ذهب وفضة ، ونفى امكان احداث هذا التحويل فى جوهر الفلزات « لأن لكل منها تركيبا خاصا لا يمكن أن يتغير بطرق التحويل المعروفة [2] » انظر دقة العالم .. فى قوله « الطرق المعروفة » ثم نبوءاته لكأنه يعرف النظرية الذرية .. وحكاية الجزىء والذرة .

« ان الانسان لا يعبر الى السعادة القصوى الا على جسر من العقل والعلم » ابن سينا .

وقال ابن سينا ان النظام الكلى للعالم مقدور لله تعالى ، وقد

---

(١) ص ١٢٢ .
(٢) ص ١٢٩ .

أبدعه على شكل ينطوى على الخير والشر • أما الجزئيات أى أفعال الناس فهى منسوبة الى فاعلها لازمة لهم ولا علاقة لها بأفعال البارى [1] •

ويعترف نللينو بأن قياس المأمون وقياس البيرونى لمحيط الأرض من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب [2] » •

« وكان يرى فى وحدة الاتجاه العلمى فى العالمين الاسلامى والغربى اتحاد الشرق والغرب • وكأنه كان يدعو الى ادراك وحدة الأصول الانسانية والعلمية بين الشعوب فى عالم واحد [3] • »

ولابن حزم آراء علمية ونظريات فلسفية « هى فى الطبقة الأولى من القيمة الذاتية للحقيقة «كما يقول الدكتور عمر فروخ»•

ومن هذه النظريات الجديرة بالذكر والاعتبار «نظرية المعرفة» وقد عقد لها فصلا خاصا فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » •

ويقول الدكتور عمر فروخ « ابن طفيل فضل طريق العقل على طريق الدين [4] » •

---

(١) ص ١٣٧ •
(٢) ص ١٤٢ •
(٣) ص ١٤٢ •
(٤) ص ١٧٦ •

وابتدأ الجاحظ كتابه الشهير (الحيوان) بما يلى : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا »[1] .

وخرج الدكتور لويس برنارد (أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط فى جامعة لندن) من دراساته بأن « أوروبا تحمل دينا مزدوجا للعرب .. تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث، وضعت العقل فوق السلطة ، فنادت بوجوب البحث المستقل والتجربة »[2] .

وفى كتاب المسائل الطبيعية الذى ألفه « قبل ثمانية قرون » العالم الانجليزى « أدلارد أوف باث » يتجلى اعجابه بطريقة العرب فى جعل العقل الدليل والقائد ، وذلك من الفقرات التالية ، وهى موجهة من «أدلارد» الذى درس فى الجامعات العربية وتأثر بطريقة علماء العرب الى ابن أخيه الذى درس فى جامعات الفرنجة وتأثر بطريقة علماء الفرنجة .

« اننى وقائدى ودليلى هو العقل ـ قد تعلمت شيئا من أساتذتى العرب : وأنت تعلمت شيئا مختلفا عنه . لقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت فى رأسك لجاما تقاد به[3] » .

---

(١) ص ٢٠٤ .

(٢) ص ٢٢٨ .

(٣) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ نفس المصدر .

ويعترف غوستاف لوبون بأن العرب أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الديني [1] » .

وقال بيكون عن ابن رشد « انه صحح كثيرا من أغلاط الفكر، وأضاف الى تراث العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها ، وأدرك كثيرا ما لم يكن قبله معلوما لأحد » [2] .

أظن أن هذا يكفي لأمثال شكري غالي .. واذا كان لنا أن نقول له كلمة أخيرة .. فاننا ننصحه ان أراد الحديث مرة ثانية عن الاسلام ، أن يدرسه .

---

(١) ص ٢٢٩ .
(٢) ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

الشرقاوى :

الأرض .. يسمون

الحديث عن الغزو الفكرى فى مسرحية سيمون •• المسماة « جميلة » لعبد الرحمن الشرقاوى يحتاج الى مقدمة ••

نعم مقدمة •• ولو طويلة جدا •• بل ولو دراسة كاملة حتى نجلو الغموض عن ادعاء التقدمية والتورية فى أدب الشرقاوى •• وقد اخترنا قصة الأرض •• لأنه ما من قصة قد أحاطتها الدعاية المقصودة بجو غير الذى خلقت من أجله مثل قصة الأرض ، واذا كان المرء يثاب رغم أنفه •• فليس من العدل أن تثاب مثل هذه القصة الرجعية ، بكل ما خلع عليها من صفات •

والأرض تمتاز بأنها من لون الأدب الرجعى الايجابى •• اختارت جانبا واضحا من الصراع الطبقى الذى شكل تاريخنا خلال سنوات ٥٠ ـ ٥٤ •

ولا شك أن لهذه الفترة خصائص اجتماعية وملامح طبقية يجب أن تتحدد لنتعرف على وجهها الحقيقى ، وحتى نستطيع أن

نضع العمل الفنى فى مكانه تماما على خريطة الصراع الطبقى ..
وقبل أن نناقش قصة الأرض ، يجب أن نتفق على نقطة بالغة الأهمية ، وهى الزمن السياسى للعمل الفنى ، أهو زمن الأحداث التى عاشها أبطال القصة ، أم زمن الأحداث التى يعيشها قراء القصة ؟

عمل الفنان .. لكى يتميز عن عمل المؤرخ ، تتحدد أبعاده بالظرف [1] الاجتماعى المحيط بصدوره ، فاذا تعرض لمشكلة اجتماعية مثارة بالفعل ، فهو متلبس زمنيا بتاريخ صدوره ، حتى لو اختار أبطاله من شخصيات الماضى السحيق ، أو من الكواكب الأخرى وبعد آلاف السنين .

فاذا افترضنا انقساما سياسيا حول النظامين، الجمهورى والملكى وظهر عمل فنى يدافع عن الملكية عند الفراعنة ، فمن حقنا أن نضيف هذا العمل بلا تردد الى ترسانة الملكيين المعاصرين، ولا يقبل الاعتذار بأن العمل صادق تاريخيا ، وأنه يتعرض لفترة غير معاصرة .. ونفس الشيء عن قصص ويلز وهكسلى التى تدور أحداثها بعد مئات أو آلاف السنين .. !

فالفن عامة يصدر عن واقع اجتماعى ، كما تصدر الرائحة عن الزهرة ، وكما تصدر الأحلام عن الجسم ، والفن الهادف بالذات

---

(١) الحمد لله .. شهد شاهد من أهلها بهذا الرأى فى معركة « الفنى مهران » بعد أن كتبناه نحن باكثر من سنة .

انما يهدف الى التأثير فى الأحداث المعاصرة ، لا التـأريخ أو تقويم الماضى •

وقد اخترت الأرض ، كما قلت ، لأنها أكبر ادعاء لصـاحبها بالثورية ، وأخطر محاولة لتزييف الواقع الحى •• ولأنها تتخـذ جانبا صريحا، وتنحاز الى احدى القوتين المتصارعين فى لحظة حاسمة وفاصلة من تاريخ الثورة •

الارض •• قصة رجعية اختارت جانب الاقطاع ضد الفلاحين •• جانب الحزبية ضد الشعب •• جانب الديمقراطية الشائهة ضد الثورة الاجتماعية •

القصة اسمها الارض••وأبطالها هم الفلاحون•• وموضوعها هو النظام السياسى فى مصر •

وهى لا تطـالب بالأرض للفـــلاحين •• ولا تهاجم النظـام الاجتماعى ، بل وجه من وجوهه السياسية ، وهى تدعو لوجه آخر لنفس النظام ، الوجه البرلمانى ، وجه دستور ٢٣ •• وجه الحكم الوفدى •• ومتى ؟ بعد ثلاثة أسابيع من حل حزب الوفد !

تلك هى القضية التى نثيرها •• فما أدلتنا ؟!

لنبدأ أولا بتحديد أبعاد المعركة التى دارت فى مصر فى زمن القصة (الزمن الحقيقى) من ١٥ يناير ١٩٥٣ الى يونيه ١٩٥٣ ثم الى يناير ١٩٥٤ بالاضافات وصدورها فى طبعة كاملة •

كانت بلادنا تعيش فى ثورة اجتماعية ، ظلت تتجمع لسنوات عديدة ، ولكن التحرك الثورى المتصل ، أو الحرب الثورية ، بدأت مع وصول الوفد الى الحكم فى مطلع عام ١٩٥٠ •• كان الوفد هو أجمل واجهات النظام الملكى وأقوى أسلحته ، وباستدعائه للحكم ، أو بمعنى أصح بالسماح له بالوصول الى الحكم ، كان النظام يهدف الى ستر بشاعته ، ولكن ارتباط الوفد بالنظام ودفاعه عن مخازيه ، فضح الواجهة المزركشة وثلم السلاح الأخير •• وأحرق جميع الكبارى •• ولم يعد أمام الشعب الا الثورة •

وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ نشبت الثورة ضد النظام كله بما فيه حزب الوفد الذى أعلن الأحكام العرفية ـ قبل سقوطه بساعات ـ ليمنع قلب نظام الحكم على حد تعبيره •• وفى ٢٣ يوليو انتصرت الثورة بمعناها الحرفى بانتقال السلطة من يد الرجعية الى الشعب •

وكما لا يعنى تحديدنا لبداية الثورة بوصول الوفد للحكم ، انكار التطورات الثورية التى سبقت هذا التاريخ ، كذلك لا يعنى حديثنا عن انتقال السلطة الى الشعب فى يوليو ٥٢ انتهاء الكفاح ضد الرجعية بعد هذا التاريخ •

بالعكس لقد خاضت الثورة أعنف وأخطر معاركها بعد انتقال السلطة للشعب ، فى الفترة من ديسمبر ١٩٥٢ الى مارس ١٩٥٤ ، فى صراعها ضد الأحزاب •• ضد الحلف الرجعى الذى تزعمه الوفد وجند له خصوم الثورة من الشيوعيين •• الى تجار المخدرات •

التورة الاجتماعية التى بدأت فى مصر ١٩٥٠ ، وانتصرت فى يوليو ٥٢ وأكدت استمرارها فى مارس ١٩٥٤ هى فى جـوهرها ثورة فلاحين .. ثورة اشتراكية ، تبدأ بتحرير الغالبية العظمى من الشعب .. أى الفلاحين ، تحريرهم قبل كل شىء من الاسـتغلال الاقطاعى .. بتصفية الاقطاع ، بنقل ملكية الأرض من الأقلية التى تملك ، الى الأغلبية التى لا تملك .. الثورة هى تمليك الأرض للفـلاحين ، وتجـريد الطبقة الاقطاعيـة الخائنة عدوة التقـدم والديمقراطية ، تجـريدها من قاعدتهـا الاقتصـادية بنزع ملكيتها الاستغلالية ، ملكيتها الاقطاعية .

والثورى هو من يدعو الفلاحين الى المطـالبة بالأرض ، من يجمع الفلاحين ويثـيرهم للمطالبـة بالأرض ، لا الأرض التى فى أيديهم . فالفلاحون ـ كما يراهم الثورى ـ لا يملكون أرضا فى ظل الاقطاع ، بل الأرض التى يملكها الاقطاع .. تجنيد الفلاحين للمطالبة بنزع ملكية الاقطاعيين .. هذه الملكية التى يحميها رجل الشرطة غفيرا كان أو هجانا .. والعمـدة والمركز والمديرية .. والقضاء .. والحكومة .. والبرلمان .. والوفد .. والدستور .. والملك . وخلف ذلك كله جيش الاحتلال .

والثورة تكتمل عند ما يتم هـذا الربط فى وعى الفلاحين ، الربط بين النظام الدستورى والاستغلال الاقطاعى ، بل تبدأ الثورة

باسقاط النظام الدستورى ، لذا فلا بد من ان يصوب الثوار نيران مدافعهم على النظام الدستورى فى أكمل صورة •

ليس الثورى هو من يهاجم تزييف الانتخابات ، بل من يهاجم نظام الانتخابات فى جميع صوره فى ظل النظام الاستغلالى ، ويدعو الى حرية التصويت من خلال تحرير الفلاح من التبعية الاقطاعية •

ليس الثورى من يهاجم تعطيل الدستور ، بل من يشجب الدستور ، ويعارضه ، لأنه يحمى النظام الاجتماعى الاستغلالى •

الثورى فى ظل ثورتنا من ٥٠ ـ ٥٤ هو الذى يهاجم حكومة الوفد وبرلمان الوفد المنتخب فى انتخابات تسمى حرة ، لأنك باسقاط أجمل واجهات النظام الرجعى ، تسقط جميع أوجهه •

أما الذى يهاجم حكومة السعديين والدستوريين أو ما كان يسمى بحكم الأقليات فهو على أحسن الفروض اصلاحى يتطلع الى شكل أفضل من أشكال الحكم الرجعى ، علما بأن حكومة الأغلبية المزعومة ، لم تكن تمثل فى انتخابات١٩٥٠أكثر من ٥٪ من الشعب المصرى اذا كان التصويت فى ظل الاقطاع يمثل شيئا •

كان التطبيق الحرفى الأمين لدستور ٢٣ يعنى حكومة وفدية، وكان وجود الوفد فى الحكم يعنى أن اعلام دستور ٢٣ ترفرف على النظام •• ولكن حكم الوفد الدستورى وحكم الأقليات لم يكونا الا وجهى عملة واحدة •• هى النظام الاستغلالى الاقطاعى •

واذا كان الدفاع عن الوفد فى ظل النظام الرجعى «اصلاحية» فان هذا الدفاع يتحول الى خيانة بعد سقوط النظام وحل الوفد بعد أن رفض قبول الاصلاح الزراعى ..

وليس المجال هنا مجال مناقشة دستور ٢٣ بالتفصيل ..ولكن يكفى أن تعرف أنه صدر بناء على اقتراح لجنة ملنر لتشكيل حكومة منتخبة توقع معاهدة مع بريطانيا تعترف بشرعية احتلالها لمصر ..

وقد رفض الوفد عندما كان ثوريا ـ ويجب أن نفهم أن ثورية الوفد لم تتخط أبدا حدود الاستقلال الوطنى ـ رفض الوفد الدستور ، وقاوم اللجنة التى شكلتها السراى والانجليز .. وسماها سعد باشا لجنة الأشقياء، وقاطعتها كل الجمعيات والأحزاب، والهيئات الوطنية ، ولكنها وضعت الدستور الذى وصفه سعد نفسه بأنه « على كثير من المبادىء الرجعية » .

ولأن الوفد حتى١٩٣٦كان يعارض توقيع المعاهدة مع الانجليز فقد كان الشعب ينتخبه ، أو بمعنى أصح ، كانت البورجوازية الوطنية فى الريف والمدينة ، تسوق الشعب لانتخابه .. وكان الانجليز يقبلونه .. ذلك هو لب الصراع الدستورى الذى جرى من ٢٤ الى ٣٥ .. فلما وقع الوفد المعاهدة فى ١٩٣٦ انتهت أزمة الدستور ، وأصبح تزييف الانتخابات عملا روتينيا ، يمكن لأى حكومة أن تجريه وبلا معارك أو صدام .

لم تكن هناك انتخابات حرة بالمعنى الثورى •• بمعنى حرية الناخبين فى الاختيار •

لم تكن هناك معركة اجتماعية حول الدستور، بمعنى أن الحكم الدستورى لم يكن يعبر عن مصالح الفلاحين ، بل بالعكس كانت كل الحكومات تحمى الاقطاع ، وفى مقدمتها الحكومة الدستورية التى تحمى الدستور وتتمسك به •• الدستور الذى وضعه ١٣ بيكا و ١٦ باشا •• والأفندى الوحيد فيهم كان الحاخام ناحوم أفندى •• الدستور الذى نص على حماية « النظام الاجتماعى » •• وحق الملكية المقدس •

ولنسمع كلمات الرئيس عن الديموقراطية والدستور فى الميثاق :

« ان حرية رغيف الخبز ضمان لا بد منه لحرية تذكرة الانتخابات » •

« ان واجهة الديموقراطية المزيفة لم تكن تمثل الا ديموقراطية الرجعية » •

« لقد صدر دستور سنة ٢٣ منحة من الملك ، ومنة منه وتفضلا » •

« ان البرلمان الذى أقامه هذا الدستور لم يكن حاميا لمصالح الشعب ، وانما كان بطبيعته حارسا للمصالح التى منحت هذا الدستور •• »

« ان حق التصويت فقد قيمته حين فقد اتصاله المؤكد بالحق فى لقمة العيش »

« فى الريف كان التصويت اجباريا للفلاح لا يقبل المناقشة ، فلم يكن يملك الا أن يعطى صوته للاقطاعى صاحب الأرض ، أو وفق مشيئته ، أو يواجه تبعات العصيان ، وأولها أن يطـــرد منَ الأرض التى يعمل فيها بما لا يكاد أن يكفى لسد جوعه •• »

« اشتراط تأمين نقدى باهظ صد جماهير الشعب العامل حتى عن مجرد الاقتراب من لعبة الانتخابات ، ولم تكن الا لعبة فى تلك الظروف •• وفى نفس الوقت فان الجهل الذى فرض على الأغلبية العظمى من الشعب ــ تحت ضغط ظروف الفقر ــ جعل من سرية الاقتراع ــ وهى أول الضمانات لحريته ــ أمرا مستحيلا أو شـــبه مستحيل •• »

« ان الديمــوقراطية الســياسية لا يمكن أن تنفصــل عن الديموقراطية الاجتماعية •• ان المواطن لا تكون له حرية التصويت فى الانتخابات الا اذا توفرت له ضمانات ثلاثة •• أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره ، أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنيــة • أن يتخلص من كل قلق يبــدد أمن المستقبل فى حياته •• » •

وهكذا يمكننا أن نرسم خريطة الثورة المصرية على النحو الآتى :

من ٥٠ الى ٥٢ :

رفع شعار .. « الأرض للفلاحين » ، وتأكيد حرمان الفلاحين من الأرض ، واستئثار الاقطاع بها ، والدعوة الى توزيعها ..

فضح النظام الدستورى ، واقناع الفلاحين بأنهم لن ينالوا الأرض بالانتخابات ، ولا بالدستور .. بل بالثورة .

من ٥٢ الى ٥٤ :

مقاومة حلف الرجعية الداعى الى تصفية الثورة بالدعوة الى الديمقراطية ، وذلك برفع شعار الأرض ضد شعار « الانتخابات الحرة »

تجميع الفلاحين حول مكاسب الثورة التى انتزعوها بتحطيم ديمقراطية الرجعية ودستورها الرجعى : دستور ٢٣ .

تفتيت مقاومة حزب الوفد ، الداعى الى دستور ٢٣ لتصفية الثورة ، وتعريته وكشف زيفه ، وتضليله للفلاحين ، وعدائه التاريخى لشعار توزيع الأرض منذ ثورة ١٩ الى أن رفض اقرار قانون الاصلاح الزراعى فى مفاوضات الثورة معه قبل حله .

فماذا فعل كاتب « الأرض » بعد خمسة أسابيع من الغاء ثورة الشعب للدستور •• وفى صحيفة الوفد المنتفع الأول بالدستور ••؟!

بدأ فى نشر الحلقة الأولى (١٥ يناير ١٩٥٣) من قصة دستورية •• مذكرة دفاع ورثاء للدستور •• أشبه بمرثية انطونيو فوق جثة قيصر •

قصة ردد فيها كلمة الدستور ١٨ مرة ، وفى صفحة واحدة ٨ مرات وفى أربعة أسطر ٣ مرات !

الدستور •• الدستور •• الدستور •• هو كل ما يطالعك من قصة تحمل اسم « الأرض •• »

« ان رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الانجليز [1] »

كأن الدستور نفسه لم يكن لحساب الانجليز وبمشيئتهم واقتراحهم • الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة •• وهى مستعمرة لبريطانيا •• [2]

« فلاحين سجنوا وضربوا فى المركز من أجل الدستور » •

---

(١) ص ١٧ •
(٢) قد يقبل من المؤرخ تسجيل تدخل الانجليز لالغاء الدستور ، اما فى قصة هادفة وبعد أسابيع من الغاء الدستور •• فهو تحيز فاضح للدستور الملغى ، واثارة مفضوحة ضد الذين ألغوه ••

« الشيخ يوسف نزعت منه ملكية نصف فدان بعد ذهاب الدستور »[1] .

لم يجد من يقول له أنه بذهاب الدستور نزعت ملكية أسياد الدستور ، لا ملاك النصف فدان .

والكاتب الهادف يعى ماذا يفعل ، انه يلخص جميع مشاكل القرية ..

فى اختفاء الحكم الدستورى ، فى قيام حكومة غير دستورية ، فى تعطيل حق الانتخاب .

« حكومة حزب الشعب التى أرسلت رجالا يغصبون الفلاحين على انتخاب رجالها .. هى التى تحرم الفلاحين من الماء »[2] .

« ان الفلاحين يعرفون بتجاربهم وحدها ، أن الحكومات التى تعتمد فى الانتخابات على رجال المركز ! هذه الحكومات نفسها هى التى تمنح الباشا دائما كل ما يريد .. »

« ويعرف الفلاحون مع كل هذا ، أن الحكومة التى لم يكن للباشا عليها كلام نافذ قد أجرت الانتخابات عليهم هم الأحياء »[3] .

وهذا كذب ..

---

(١) ص ١٩ .
(٢) ص ٧٤ .
(٣) ص ١٨ .

الفلاحون يعرفون •• وكان واجب الفن الهادف أن يعرفهم أنه قبل يوليو ١٩٥٢ لم تقم فى مصر حكومة واحدة ، لم يكن للباشا عليها كلام نافذ •• لا فرق بين حكومة دستور ٢٣ ودستور ٣٠ من هذه الناحية •• كلاهما يمثل حكم باشاوات الاقطاع ••

والحل عند مؤلف « الأرض » هو عودة الدستور •• العصا السحرية التى تحل جميع المشاكل ، والتى تجلب الخير والرخاء ، بل حتى « البقالة المفتخرة »

« الناس يدركون أن الحرية هى التى توفر الطعام ، وأن الدستور هو الذى يضمن الحقوق ، وأن اختيارهم الحر لمن يحكمون ، هو الذى يضمن شروطا انسانية للحياة •

لو أن مؤرخا أراد أن يؤرخ وجهة نظر الرجعية فى معركة ١٩٥٤ •• لما وجد أفضل من تلك السطور التى كتبها عبد الرحمن الشرقاوى فى لسان حال الرجعية •• صحيفة المصرى •

وواضح أنه المفهوم العكسى لثورتنا •• منطق الرجعية المغلوط •• ثورتنا تؤمن بأن الطعام هو الذى يوفر الحرية ، وأن توفير الشروط الانسانية للحياة هو الذى يضمن الاختيار الحر ويكفل الحقوق ، ويشكل مواد الدستور •

وقد يبدو أن هذا الكلام قضية مسلم بها اليوم بعد أن نص

---

(١) ص ٣٧٣ .

عليه الميثاق ، ولكن نصوص الميثاق هى ثمرة المعركة التى دارت فى ٥٢ ـ ٥٤ .. والتى كان طـــرفاها : الثـــورة التى تؤمن بارســاء الديمقراطية على قاعدة من العدالة الاجتماعية توزيع الأرض على الفلاحين هو لبنتها الأولى .. والطرف الثانى كان التحالف الرجعى مع فلول الشيوعيين الذين كانوا يريدون ضرب الثورة برفع شعار الديمقراطية .. والذين كان يثيرهم الاستيلاء « غير الدســتورى » على ملكيتهم الاقطاعية .

وكان التحالف الرجعى يعتمـــد على اخفاء طبيعـــة المعركة ، وطمس جانبها الطبقى ، بدفن شعار توزيع الأرض على الفلاحين .

وكانت الرجعية وأذنابها من الماركسيين يعرفون أن جند الثورة هو الفلاح الفقير الذى حرم من الأرض حتى ملكتها له الثورة .. لذلك يصب مؤلف « الأرض » حقده على من لا أرض له (!!) فالقصة التى تحمل اســم الأرض ، أبطالها جميعــا ملاك .. تنتزع الحكومة الاستبدادية غير الدستورية « المعادية للوفد » .. «أرضهم» .. وأذناب الرجعية عملاء الحكومة ، هم الذين لا يملكون !

الشيخ الشناوى رجل الدين الذى صب عليه الكاتب «المتحرر» جام غضبه وحقده بطريقة خالية حتى من شكليات الفن ، فضلا عن الذوق فى معالجة رجل دين حتى ولو كان رجعيا .. سيدنا هـــذا « لو كان يملك قيراطا واحدا على الأقل لآمن أن الحكومة ـ لا الله ـ هى التى تحرم الفلاحين من الماء .. ولتأكد أن الحكومة وحدها

(لا النظـــام الاجتماعى ولا الاقطاع كطبقـة) هى التى تصـــنع المصائب[1] » •

« لم يكن الشيخ الشناوى يملك فى كل أرض القـــرية غير المقبرة[2] » •

ان الذين يملكون أرضا فى القرية يضعون أيديهم فى النار، أما سيدنا فهو كخضرة (المومس) يده فى الماء •

« شعبان رجل ضائع ليس له فى القرية أرض »[3] •

لذا فهو عميل الرجعية مخرب للكفاح ضد الحكومة •

حتى الخدم فى القاهرة لهم أرض فى البلد ، وعندما يريد أن يجتذبهم للعمل ضد الحكومة يذكرهم بالملكية •• « والقيراطين بتوع أبوك ماهم حيروحوا » •

وبطل القصـــة عبد الهـادى « يقف الى جـوار الأرض التى يملكها هو والتى ورثها عن أبيه •

بل ان الثورية والوعى ، تتناسب فى القصة طرديا مع الملكية، بعكس المفهوم الماركسى ، ولكن المـاركسية فى عالمنا العـربى كانت

---

(١) ص ٩١ ـ ١٨٦ •
(٢) ص ١٢٤ •
(٣) ص ٣٠٩ •
تأمل كيف يقرر أن الحرية هى أساس ضمان لقمة العيش بعكس ما افنى ماركس حياته فى اثباته ! •

تتمتع بصفات الحرباء ، فهى تتلون وفقا لمصالح الحلف الوقتى ، وكان الحلف الذى يسعى اليه فى ٥٣ـ ٥٤ هو حلف يقوده ملاك الأرض ضد ثورة الفلاحين المعدمين .

والقصة حريصة على اخفاء الصراع الطبقى بين المعدمين والاقطاع ، حتى لتخلو من ذكر اقطاعى واحد ، بل تكتفى بشبح باشا لا يطمع فى أكثر من بناء قصر على سكة زراعية ، وحتى الأرض التى ستنتزع من الفلاحين لا يستولى عليها الاقطاعى أو الباشا .. بل « تؤمم » باسم مشروع عام هو السكة الزراعية التى يستغل الباشا نفوذه على الحكومة غير الدستورية لجعلها تمر على أرضه !

القصة هى ملحمة بطولة .. يكتبها كفاح « ملاك » ضد حكومة « غير دستورية » .. تنتزع أرضهم !

« سكة زراعية تريد الحكومة أن تشقها غصبا عن أصحاب الأرض » [1] .

« معظم الذين يملكون أرضهم فى حوض الترعة يصبحون بلا أرض اذا نفذت الحكومة مشروع الزراعية » [2] .

---

(١) ص ٢٠٠ .
(٢) ص ٢٠٦ .

« والشباب يجب أن يشتركوا فى مقاومة الحكومة غير الدستورية لأنهم سيرثون الأرض »[1] .

والحكومة غير الدستورية « تستولى على أرض الفلاحين لتشق فيها سكة زراعية يريدها الباشا »[2] .

« ياخدوا منا الأرض ازاى بقى يا حضرة الناظر .. ياخدوها ازاى[3] .

ياخدوا منا الأرض .. ما يمكنش أبدا »[4] .

« لقد تفلح القوة الغاشمة فى أن تنزع الأرض من الفلاحين »[5] .

« ترنح محمد أبو سويلم على الأرض التى ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما »[6] .

هذه « أرض » المالكين التى يدافع عنها الشرقاوى ، وان كان يمكن لهذه القصة أن تثير حماسا ، فهى جديرة بأن تثير حماس الاقطاعيين للدفاع عن ملكيتهم ، لا أن تثير حماس الفلاحين الذين ملكتهم الحكومة غير الدستورية .. حكومة الثوره حكومة الشعب .. رغم أنف دستور الاقطاع الملغى .

---

(١) ص ٢٤٢ .
(٢) ص ٢٦٢ .
(٣) ص ٢٨٥ .
(٤) ص ٢٧٥ .
(٥) ص ٣٧٢ .
(٦) ص ٣٩٧ .

ولولا أننا نلتزم فى هذه الدراسة بالأدلة التى لا تحتمل التأويل ، لاستنتجنا الكثير من رموز القصة التى تحكى كفاح ملاك ضد حكومة غير دستورية ، تنتزع الأرض من أيدى الذين يعيشون عليها [1] بينما تستطيع أن تلجأ الى طرق أخرى ، هى الاهتمام بالجسر فلا تنزع ملكية أحد .

وكان الوفد يدعو الى الضرائب التصاعدية بدلا من تحديد الملكية .

والحل الذى يقدمه المؤلف..هو عودة الدستور..«فالدستور يوفر حق كل انسان فى أن يعمل ، وحق الكلمة فى أن ترتفع» [2] .

«لئن سقطت الوزارة وعاد الدستور، فسيعود محمد أبو سويلم شيخا للخفر ، ويروج الناس » [2] .

« شوف .. اطرد الانجليز ، واطرد حزب الشعب كمان ، ورجع الدستور .. والقطن يبقى عال » [3] .

حتى بعد خروج الانجليز يريد عودة دستور الوفد !

وفى الأجزاء التى أضافها المؤلف للقصة ، والتى نشرت فى

---

(١) ص ٢٠٦ .
(٢) ص ٢٦٨ .
(٣) ص ٤٢٠ .
(٤) ص ٢٧٨ .

صحيفة المصرى فى مطلع عام ٥٤ عندما كانت الرجعية تحلم بالنصر القريب ، وتصل بها أحلامها الى حد تسمية رئيس الوزراء الذى سيصفى الثورة ويجرى الانتخابات الحرة ، وتكتب داعية لعودة الدستور . أى عودة الوفد .. فى هذه الأجزاء نجد أبطال القصة أكثر جرأة فى اعلان وفديتهم .

« مش انتو بتوع يحيا الوفد » ..؟!

فقال المحامى بطلاقة ـ ليسوا هم فقط ! دى مصر كلها [1] .

« كلماتهم التى تضطرم فى الصدور وهم يرقصون على الهتاف تحيا مصر .. يحيا الوفد » [2] .

« يموجون ويرقصون فى نغم قاصف .. تحيا مصر .. يحيا الوفد » .

ويختتم المؤلف قصته متمنيا لقريته داعيا لها ، معرضا بالقصة الرجعية «زينب» لمؤلفها « الحر الدستورى » هيكل .. بينما يثنى على « الأيام » .. ربما لأن مؤلفها وزير وفدى سابق !

تمنيت لو أن قريتى هى الأخرى بلا متاعب كالقرية التى عاشت فيها زينب .. الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء والحكومة لا تحرمهم من الرى ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض [3] ..

---

(١) ص ٣٣١ .
(٢) ص ٢٧٤ .
(٣) ص ٣٤٤ .

«لم تذق قرية زينب اضطراب مواعيد الرى ، ولم تجرب بون الخيل يصب فى الأفواه » •

وحديث عن الحصوة فى الكلى والبلهارسيا •• ولكن •• أهذه حقا هى متاعب قرية عبد الرحمن الشرقاوى •• أخلت قريته من أس البلاء الحقيقى ، ومصدر شقاء الفلاحين ؟! لماذا خلت قريته وحدها من الاستغلال الاقطاعى ؟!

قرية عبد الرحمن الشرقاوى فى أحسن الفروض تشكو الفقر والاستبداد السياسى •• لا الاستغلال والظلم الاجتماعى •

وهكذا نرى أن قصة « الماء والسكة الزراعية » لا الأرض •• قصة رجعية فى اخفائها مشكلة الفلاحين الأولى •• وهى توزيع الملكية • وكذلك فى دفاعها وتمجيدها لحزب الوفد رأس الرمح فى معسكر الرجعية حتى مارس ١٩٥٤ •• وفى اشادتها بدستور ٢٣ الرجعى •• والذى كان الغاؤه هو شرط نجاح ثورتنا الاجتماعية•• رجعية فى دفاعها عن الديمقراطية الشكلية وجعلها مقدمة للرفاهية أو حتى العدل الاجتماعى ؟ بينما آمنت ثورتنا وعلمتنا تجاربنا أن العكس هو الصحيح •

جميلة .. أم سيمون ؟

هذا الكاتب الذى عريناه من تقدميته المزعومة ، ووضحنا أن أهم « ادعاء » له بالثورية : قصة الأرض ، ليست الا عملا رجعيا معاديا للثورة .. اصلاحية دستورية .. تعادى الثورة والفلاحين .. وتعارض شعار توزيع الأرض وتصفية الاقطاع ، وتدافع عن حكم الوفد الاقطاعى .

هذا الكاتب .. أين موقعه من طابور الغزو الفكرى .

الحق انه يأتى فى مقدمة الصف .. بل رائد من رواده .. وهو لا يسرب فلسفة الغزو فى مناقشة القصص أو الجنس ، أو الاشادة بسلامه موسى كما يفعل الصغار الآخرون .. بل يتعمد الاصابة فى القلب مباشرة .

اختار أعظم نصر اسلامى .. منذ صلاح الدين .. ليكيل له الطعنات ..

اختار معركة الجزائر العربية الاسلامية ليكتب عنها مسرحية جميلة .

فماذا أراد عبد الرحمن الشرقاوى بمسرحية جميلة ؟ .. هل أرادها مأساة اسلامية ؟ مأساة اضطهاد صليبى دام مائة وثلاثين عاما، ومارسه كاثوليك .. وملاحدة .. وشيوعيون ..

كلهم حكموا الجزائر ، وتمسكوا بالجزائر ، التى شعار مدينتها صليب منتصر وهلال منكس منهزم !!

هل أرادها مأساة عربية ؟

مأساة شعب عربى يحرم عليه النطق بلسانه لكى تمحى قوميته، ويندثر دينه ..

لا ..

أرادها الشرقاوى مأساة جزائرية كما سماها بالضبط [1] . لا عربية اسلامية ..

ومع ذلك . فهل نجح حتى فى هذا الاطار الضيق ، هذا الاطار الرجعى الذى يتمشى مع المخطط الاستعمارى ، الذى نادى عشية النصر .. بالجزائر جزائرية .. لا فرنسية ولا عربية .

كلنا نعرف أن المعركة الجزائرية فى مراحلها الأخيرة ، كانت

(١) ص ٣ عنوان المسرحية .

بين الاستعمار الجديد الذى رفع لواء الجزائر جزائرية •• بعد أن يئس من شعار الجزائر فرنسية ، بأمل أن يقطع روابطها الحقيقية بالوطن العربى الاسلامى • ولكى تقع بعد ذلك فريسة عاجزة فى المحيط الفرنسى ••

وبين الذين أرادوا النصر كاملا : نصرا يتوج بعروبة الجزائر واسلامها •• فمن أجل هذا الهدف وحده مات مليون شهيد •

المؤلف يستعرض فى اهدائه ، أهداف المقاتلين الجزائريين ، وهو يستعرضها على سبيل الحصر لا على سبيل المثال •• فيقول : « الحرية والاخاء والأمن والحب وحياة أفضل •• »[1]

لم يذكر لهم من أهدافهم •• العروبة والاسلام •• لا الوحدة العربية •• ولا العودة الى محمد •• لحن الجزائر الحبيب بعد الاستقلال •

جعل لهل أهدافا تصلح للفرنسيين أو المنغوليين ••

وهو هنا يعكس تفكير الدوليين ، حيث يتصارع المطلق مع المطلق •• الا أنه أيضا يطمس أهدافنا الكبرى • ويجرد معركة الجزائر من مضمونها الأصيل الذى أصبح كسيف آصف بن برخياء يكشف من فى قلبه زيف أو رياء •• كل من يخالط ايمانه الشك •• أو يقول بلسانه ما ليس فى قلبه •

---

(١) ص ٥ •

معركة الجزائر كانت من الجانب الفرنسي .. معركة صليبية، يلعب الصليب فيها دور الرمز للمحتلين .. من طابع البريد ، الى الأفلام التافهة مثل « اختطاف بن بللا » .. بل ان وزراء فرنسيين لم يتورعوا عن أن يصفوا الحرب الجزائرية بأنها صراع بين الهلال والصليب ..

وكان الاسلام هو المحرك الثورى والموحد للجماهير ، كما يؤكد ثوار الجزائر .. الأكثر علما بثورتهم من مؤلف « جميلة »[1]

والمسرحية كما كتبها الشرقاوى تصلح للعرض فى مسارح فرنسا اذا نجحت فنيا ـ وهو موضع شك كبير ؛ لأنها فى الحقيقة تخاطب الشعب الفرنسى ، وتجادله بحجج فرنسية ، ومنطق فرنسى .. يهمها الدفاع عن شرف فرنسا ، والتقاليد النبيلة لفرنسا ..

وكان الأجدر لو سماها « سيمون ».. اذن لكان الاسم منطبقا على الفعل . فسيمون العاهرة الفرنسية هى البطلة التى أرادنا أن نصفق لها .. وأن نصفق لعناقها مع الجزائرية المسلمة .. هند !

سيمون العاهرة .. مات زوجها فى الهند الصينية .. وبعد قصة خرافية عن سوء معاملة البيروقراطية لها ، جاءت الى الجزائر

---

(١) الذى يقيم فى شبرد كلما شرع فى تاليف ملحمة ثورية .

لتطعم ابنتها ، وهى حاقدة على الذين غرروا بزوجها وقتلوه ..
لذا تساهم فى أعمال جيش التحرير ، بل تقوم بأهم عمل ثورى فى المسرحية [2] .. ولا يفوت المؤلف أن يجعلها تنشد !

« من أجل فرنسا ما أصنع » [3] !!

والمفروض أن تلتهب أكف النظارة فى هذا الموقف .. فلماذا حرص المؤلف على أن يدفعنا الى التصفيق لفرنسية .. من أجل فرنسا ما تصنعه ؟ ربما من فرط انسانيته .. ومن أجل التآخى الفرنسى ــ الجزائرى ؟!

ثم تتعانق هند وسيمون [4] .. وذلك شىء لم يحدث .. والمفروض أيضا أن يستدر هذا الموقف تصفيق النظارة .. فنصفق لعناق عربية وفرنسية .. ولقد مات مليون شهيد لكى تنتزع الجزائر العربية من أحضان العاهرة الفرنسية ، حتى لو أخفت عهرها فى جنلة مثلثة الألوان ، يسارية ، فاضحة ، ومفضوحة ..

وهل صحيح أن عاهرات فرنسا ، لعبن دورا .. أى دور ! فى تحرير الجزائر ، فضلا عن أن يكون دورا عظيما الى هذا الحد .. جديرا بتسجيل الفنان العربى .. المفروض فيه الثورية ؟!

---

(١) ص ١٥٥ .
(٢) ص ١٥٠ ــ ١٥١ .
(٣) ص ١٥٣ .
(٤) ص ١٥٩ .

نحن لا نتوقع ، ولا نريد من فنان عربى ، أن تقتصر مهمته على تسجيل التعذيب الذى عاناه الوطنيون فى الجزائر ، والدفاع عن عدالة قضيتهم •• فحسبنا فى هذا شهادة غير العرب ، ومنهم عدد مشكور من الفرنسيين ••

ان الثورة الجزائرية لا تحتاج الى تبرير •• على الأقل عندنا نحن العرب •• ولكننا نتوقع من الفنان العربى ونطالبه بكشف المضمون الحضارى ، والمغزى القومى لثورة الجزائر •• وأن يزيد عداء الوطنيين للفرنسيين ، ويشحذ حجتهم للفتك بهم •• لا اثارة العطف عليهم •• لأنهم يساقون الى حرب لا يريدونها •• وتتنافى مع تعاليم دينهم !

القضية ليست أبدا قضية الدفاع عن شريعة المسيح •• أو تبشير بالكثلكة •• انها حرب صليبية ••

واثارة علاقة أخوية بين القاتل والمقتول لا تفيد سوى القاتل •• ومعرفة المقتول بأن الجلاد ليس سوى أداة ، لا تفيده بشىء ، ولكنها تسهل مهمة الجلاد ••

نعم ؟ •• ما المصلحة فى اثارة العطف على الفرنسيين الذين يقاتلون بدافع الفقر والحاجة ، ويتم أطفالهم ، وجوع نسائهم •• أو تحت تأثير التضليل •• قد يقال هذا فى محكمة ثورية عربية

لتخفيف العقوبة عن أسراهم •• ولكنه لا يقال فى عمل ثورى عربى ، المفروض أنه يخاطب المقاتلين العرب •

لقد حاول المؤلف أن يعتذر فى كل مشهد عن الفرنسيين البؤساء ، الذين يعانون أزمة ضمير وتناقض بين ما يفعلونه وبين التعاليم المسيحية !

ولقد عاقب ستالين مؤلفا روسيا ، لأنه أشاد أثناء الحرب ، بالكفاية الألمانية••وقال ستالين «فى الحرب•• لامكان للموضوعية»• والحديث عن أخوة الفرنسيين والجزائريين ، قد يفيد فى فرنسا •• لأنها تفت فى عضد الفرنسيين ، ولكنها خيانة عقوبتها الموت على الجانب لعربى المقاتل من أجل استخلاص حريته •

لذا فهى محمودة من كتاب فرنسا •• لأنها هى المعتدية •• ولأن المطلوب وقف عدوانها •• منكورة مذمومة من كتاب المعتدى عليهم ••!

ثم لماذا هذا الحرص المبالغ فيه على كرامة فرنسا ، وشرف فرنسا ، ما دمنا نخاطب الثائرين العرب •

جميلة تشيد بمقاومة فرنسا للهتلرية [1] •

وفيرجيه : ولكى يرى الشعب الفرنسى المضلل •

---

(١) وان كنا لا نعاقب الأسرى •
(٢) ص ١٩٤ •

جان : بل ها هنا وطنى فرنسا يمتهن[1] •

جان : اهدروا اليوم تقاليد فرنسا •• التقاليد النبيله •

اننى أصرخ فى كل مكان[2] •

اننا نهدر تاريخ البطولات المجيده •

وحتى فى التعذيب •• لا تنسى جميلة كرامة فرنسا !

جميلة : من عذبنى فى سجنى تعذيبا يزرى بكرامتكم •

فيرجيه : انه صوت فرنسى شريف •

والفصل الأخير هو فرنسى يدافع عن جزائرية •• ! شكر الله سعيكم •• اليسار الفرنسى لم يدافع عن الجزائر •• بل غرق فى عار الاستعمار •• والذين دافعوا عن جميـلة العربيـة •• جميلة المسلمة •• هم أبطال جيش التحرير •• العرب المسلمون •

والحوار بين جان وبيير •• وخطبة بيير[3] •• لمن يوجه هـذا الحديث •• لنا نحن العرب •• وما الفائدة •• أم استعدادا لترجمة المسرحية الى الفرنسية •• ان كان ذلك هو الهدف •• لنيل رضاء

---

(١) ص ٢١٩ •
(٢) ص ٢١٢ •
(٣) ص ٢٠١ •

المنتدى الأدبى فى باريس ؟ •• فلا بأس ، شريطة أن نوارى النص العربى ، كما نصح أبو الأسود الدؤلى ، ابن أخيه الصفيق[1] ••

تعالوا نقلب صفحات المسرحية •

ستروعنا فى البداية هذه العـــلاقة الأبوية بين جان الفرنسى السفاح ومبروك الثورى الجزائرى •• تخيل جان يرى مبروك يخرج من جيبه منشـــورا ثوريا ليعلقه على الحائط فينهاه الضابط الفرنسى كالجدة العجوز :

« مبروك ! هذا لا يجوز[2] •• »

لا يا شيخ •• لو أن ضباط فرنسا كانوا بهذا الحنان •• لما احتاج الأمر لمليون شهيد قبل أن تتحطم أنياب الاستعمار المسعور••

ويتطور جان بدافع من مســيحيته وضــميره ، الى مدافع عن الوطنيين ••

والمؤلف حريص على اثبات مسيحية جان ، وأنها هى الدافع لسلوكه الطيب ، المتعاون مع الثوار •• جان يرسم عـــلامة الصليب ويقول :

---

(١) سمع اللغوى العربى أبو الاسود الدؤلى ابن أخيه ينطق لفظا عريبا •• فنهاه عنه ، فرد ابن أخيه : هذا لفظ عربى لم تسمعه يا عمى •• فرد أبو الاسود ناصحا : « كل لفظ لم يسمعه عمك فواره يابن أخى كما توارى السنور خرءها » •
(٢) ص ٢٧ •

يا يسوع ! لا تؤاخذنى بما أخطأ غيرى [1] .

ويقول :

انى لأقسم بالمسيح

بكل آلام المسيح .

أنا لم أعذبهم هناك ولى خيار [2] .

سخف أن تناقش الجبر والاختيار فى حرب ضروس ، وسخف أن نفكر ونحن نطلق النار .. أمجبرة تلك الرصاصة المقبلة من الجانب الآخر .. أم حرة الارادة ..

« حيث المسيح يعود يصلب من جديد .. كل يوم ألف مرة »

هل يخاطبنا نحن العرب ؟! الجزائريون لا يؤمنون بأن المسيح صلب .. ولا يفهمون هذا الرمز .. نحن العرب المسلمين لا يثير فينا هذا الرمز شيئا .

وأبطاله مسيحيون .. الفرنسيون يعتذرون للمسيح ويقسمون به .. بينما المسلمون اذا حيوا بعضهم يقولون :

« السلام » .. لا « السلام عليكم .. »

وهم أيضا يستشهدون بالمسيح والصليب .

---

(١) ص ٢١٣ .

(٢) ص ٣٦ .

« ومنى » عندما تستشهد فمن العهد القديم :

« زوج لوط عندما التفتت الى خلف غدت تمثال ملح ! » .

فترد زميلاتها المسلمات بسرعة فائقة :

هذا من العهد القديم ..!

أما عندما يستشهد جاسر بآية قرآنية فان جميلة تتساءل فى سذاجة .. أو كأنها أبو جهل :

أأنت شاعر ؟!

يا للوقاحة ..

صحيح أن جانبا من المثقفين الثوريين الجزائريين قد أفقدهم الاستعمار لغتهم .. ولكن فرنسا لم تستطع أبدا محو الاسلام . بل قهرها الاسلام .. قهرتها الكتاتيب التى علمت القرآن .. ومشايخ الطرق الصوفية الذين حفظوا التراث الاسلامى .. قهرها « لا لا خديجة » أعلى جبل فى مناطق البربر . موسم سيدى بلال .. عيد المساواة عند السود الجزائريين .. الاسلام قهر فرنسا .. وأعاد الجزائر الى العروبة .

واذا كان المؤلف حريصا كل الحرص على اثبات مسيحية الفرنسيين الشرفاء ، الذين ثابوا الى شرفهم .. فلماذا لم يلتزم الحياد ويبرز اسلامية الثوار ؟

بالعكس .

لا اشارة جادة الى الاسلام .. بل لا يرد وصف الجزائريين كمسلمين الا على لسان الفرنسيين ، من باب التحقير .. أما الثوار فيتحدثون عن أنفسهم دائما كجزائريين .. وعند الضرورةالقصوى .. واذا تحتم التعريف .. فكعرب[1] .

أما الصلاة والدين ـ الاسلامى فقط ـ فلا يذكره الا الخونة عملاء الاستعمار ، أو الذين يعملون فى خدمتهم ولو متنكرين .

فالجاسوس هارون يقول :

لم لا تقوم لكى تصلى

هل سهوت عن الصلاة ؟

ويعود هارون الجاسوس يقول :

أتهين خلقة ربنا ؟

فيرد أحمد ، ممثل مصر ، هازئا كثورى أصيل :

لا والنبى .. ادخل علينا كلنا[2] .

والغريب أن الذى عرف أذان العصر واستبشر به هو الضابط (عزام) الذى يعمل فى البوليس الفرنسى [3] .. ربما كان ذلك

---

(١) ص ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٨١ .

(٢) ص ٤٧ .

(٣) ص ١٨٧ .

جزءا من تنكره •• أو راجعا الى خدمة فرنسا التى تعلم المسلم دينه •!

وقد أشير الى الاسلام •• ووردت عبارة (الله أكبر) فى أماكن متفرقة من الرواية •• ولكن على أية نحو ؟

مرتان على لسان الجاسوس كما رأينا •• ومرة على لسان المحامى الخائن عميل فرنسا •• بل المؤسف أنه هو وحده الذى عرف المواطن الجزائرى التعريف الصحيح :

« أنا مثلك عربى مسلم •• ومن حركتنا الوطنية » [1] •

فترد عليه جميلة فى الحال بعد هذا التعريف :

بل أنت عميل متعفن !

ومرات على لسان هند •• ولكن بعد أن فقدت عقلها !

هند : الله أكبر ! هذا النداء الحر يدفع موكب الفجر الجديد •

والمؤلف حريص جدا على أن يؤكد صفة الجنون عليها فيتبع ذلك بقوله :

ممثل النيابة : لا تأبهوا بصراخها الملتاث فهى ممثله [2] •

---

(١) ص ٢٣٠ •

(٢) ص ٢٤٦ •

وجميلة عندما تصرخ تقول : الله أكبر •• ولكن عندما تعود الى وعيها وتحاجى معذبيها تقول :

سيدى !

ان رحت يوما للكنيسه

وتطلعت لتمثال المسيح •• وهو فى تاج الشوك •

ففكر فى الذى عاش لنا منه

وفيما عاش من أعدائه [1]

والمجنونة هند تقول :

من يوم أن ذبح الحسين وأهله فى كربلاء ••

لم تأت غاشية كتلك [2]

وأعترف••أنى قد أعيتنى الحيل فى فهم مغزى هذا الاستشهاد الغريب •• هل يريد المؤلف أن يعتــذر عن الفحش الفرنسى •• بأنه ليس أكثر من تكرار لغاشية أخرى ارتكبها المسلمون ضد بعضهم البعض •

هل يريد المؤلف أن يدفعنا الى الاحساس بأن الظلم والقسوة صفات انسانية عامة يرتكبها المسلمون والفرنسيون •• وأنه كما لم

---

(١) ص ٢١١ •
(٢) ص ١١٣ •

تمنع غاشية يزيد أخوة المسلمين ، ولا خلعته من خلافتهم ، فكذلك لن تمنع غاشية سوستيل أخوة جميلة وقتلتها ؟!

غريب أن يكون ذلك هوالتشبيه الوحيد الذى جاد به المؤلف من التاريخ الاسلامى ؟

غريب •• أين وجه الشبه بين مصرع الحسين •• والاحتلال الفرنسى الصليبى فى الجزائر ؟•

ثم بعض ألفاظ من باب العادة اللفظية مثل :

عاش لم يرج من الايام الا وجه ربه •

ثبت أيدينا يا رحمن •

ان كلمات أوزيجان هى أبلغ رد على محاولات اخفاء الاسلام، محرك الثورة الجزائرية ، واستبداله بكلمات لا معنى لها ، مثل الحب ، والأخوة والانسانية ، وحياة أفضل •• لكى يبدو المرء رشيقا لطيفا أمام العالم المتمدين •• فعمار أوزيجان الثائر التقدمى يقول :

« ان موقفنا ازاء الاسلام يختلف ، لأننا ثوريون ، مرتبطون بالشعب••ذلك أن رفض الايديولوجية الاسلامية فى بلاد مستعمرة، يضطهد دين أكثرية سكانها الساحقة ، علامة تجدد أخرق ، تنادى بها فئة منفصلة عن الشعب، غريبة الحياة والفكر ، امتصتها أو شلتها أيديولوجية العدو المستعمر » •

أما عن الحساسية المفرطة لدور اليسار الفرنسى والحرص الذى يثير الشك على وحدة الشعبين : الفرنسى ، والجزائرى .. فقد تقدمهما أوزيجان فى رده الساخر على سكرتير الحزب الشيوعى الجزائرى .

وكان سكرتير الحزب قد قال فى نقده لجبهة التحرير : « ينبغى القيام فى توازٍ مع النضال المسلح، بعمل دائم للتربية السياسية بين صفوف الجيش الفرنسى ، وأوساط الشبان الفرنسيين ، وعلى الخصوص بين أوساط العمال والفلاحين ، الذين أقحمهم الكذب فى حرب ظالمة وضد مصالحهم ، وهذا يفترض موقفا أكثر دقة وايجابية ازاء القوى التقدمية فى فرنسا » .

سخر أوزيجان من هذا الكلام .. وأثبت أن هذه كانت مهمة الحزب الشيوعى الفرنسى أولا .. ولكنه ، أى هذا الحزب ، كان حريصا على منع الفاشية من فرنسا ولو باخماد ثورة الجزائر .. ويتساءل أوزيجان فى سخرية .. « هل كان ينبغى لتحسين العمل اللاعنفى ــ اللاحربى ، فى الجيش الفرنسى ، أن ندعو المفوضين السياسيين فى جيش التحرير الوطنى للانخراط بين صفوف الفرق المظلية والبحرية ، حيث الشبان الفرنسيون ــ عمالا وفلاحين ــ كثيرون .. ولكن حيث لا يقبل العرب » .

يصف أوزيجان كـلام الحزب الشيوعى بأنه هزر •• وأنه دعوة لتقديم الثانوى على الأساسى •

ونحن بدورنا نقول : ان مسرحيةجميلة لم تكتف بأن جعلت من الثانوى محورا لأحداثها ، بل تعمدت أن تخفى الأســـاسى فى قنبلة دخان وصوت •• لتحجب طبيعة الحرب الصليبية التى تشنها فرنسا ممثلة الغرب الصليبى ضد الثورة العربية الاسلامية التى كان شعب الجزائر كتيبة صدامها الباسلة •

الراهب اللامنتمى ..

مرت ثلاث سنوات ، أو أقل قليلا ، على ظهور مسرحية الراهب ، وخفتت دقات نواقيس المبشرين بمولد التراجيديا .. المخلصة لآدابنا وفنوننا من خطيئتها ، وابتعدت صيحات « هللويا » يطلقها المنشدون : الفن المصرى قام . بمسرحية الراهب .. لا بالحقيقة قام ..!

وليسمح لنا المنشدون والمهللون بأن نقول كلمة فى المضمون السياسى للمسرحية..ما دام جهلنا الفنى لا يسمح لنا برؤيةالروائع خلف الفكرة الساذجة المطروقة .. فكرة الحب يسمو بالعاهرة الى مصاف القديسين ، وبالراهب أو القديس الى مصاف الانسان .

لنقصر نقدنا على الجانب السياسى .. فهو الأهم.. ومسرحية الراهب ـ أولا وأخيرا ـ عمل سياسى مباشر..لا من ناحية توقيت

صدورها[1] بل ان المؤلف قد تجاوز فيها الهمس الفنى الى الصراخ السياسى ، عدمنا أكد أنه انما يتحدث عن مصر المعاصرة ، مصر التى كان علمها أخضر وله هلال بثلاثة نجوم .. عندما جعل مارتا تقول :

مارتا : وهـــذا ما فعلت خرجت الى حديقة القصر لأستريح وهناك رقدت تحت شجرة التين وأغفيت ، وفى نومى رأيت العذراء .. فى رداء أخضر .. لماذا تعلموننا الخطأ ؟! .

أبا نوفر : فى رداء أخضر ؟!

مارتا : نعم ، لم تكن فى رداء أزرق كما تقولون .. كانت فى رداء أخضر وكان فى جبينها هلال ، عليه ثلاثة نجوم .

هذه هى مصر التقليـــدية ، التى كنا نراها فى المسرحيـات المدرسية وكاريكاتير الصحف .

والمؤلف يريد أن يقول صراحة أنه يتحدث عن مصر المعاصرة ، وأنه يثير قضية الحفاظ على اسم مصر فى المعركة الدائرة فى العالم العربى حول الاقليمية والعروبة .. وأن حكاية بيزنطة وروما ليست الا الجسر الرمزى (وان يكن قـد تخطى التزامات الرمز) الذى يعبر عليه بفكرته .

وفى الشتاء القارص لعام الانفصال ، عندما كان الرئيس يتلقى

---

(١) أسابيع بعد الانفصال .

ملايين الخطابات تطالب الحفاظ على اسم الجمهورية العربية المتحدة ورايتها العربية •• أراد المؤلف أن تظهر العذراء على المسرح بثوب أخضر ، وفى جبينها هلال وثلاثة نجوم •• ويسدل الستار وصوت شبيو يقول :

« ستلقون فى جب الاسود ، وتقلون فى الزيت المغلى لتنكروا اسم مصر ، فينكر بعضكم ، ويصمد الأكثرون ، حتى ينجلى هـذا البلاء الفظيع » •

ولكن رفض مسرحيـــة الراهب مرتبط برفض الكتاب الذى يجرى فى نفس الخط ، والذى يمثل أوضح صور الغزو الفكرى ، وهو « المؤثرات الأجنبية في الأدب العربى الحديث » لنفس المؤلف

وقبل أن نناقشه يجب أن نقول كلمة فى الانتماء وموقف مصر بالذات من محاولات دمجها فى متحد أكبر •• وموقفنا من أبانوفر عصر الشهداء وأبانوفر الحديث •

مصر •• كما أثبتت تجربة التاريخ ـ لاتعرف التبعية الروحية أبدا •• قد يحتلها الغزاة ، ويفرضون عليها حكمهم ، ويخضعونها لأشنع ألوان الاستبداد والقهر •• وقد تبدو فى صـــورة المستذلة المستكينة •• ولـكن روحها تبقى دائما أبدا مستقلة •• لا تبيعهـــا لسلطان ، ولا تستذلها فلسفة •• ولا تنحنى لقوة •• اما أن تجبر خصمها على الانحناء لروحها فتصبغه بها •• واما أن تنأى عن قصر

الطاغية ، وتفر بها فى الصحراء ، وأكواخ الفلاحين ، وصوامع الرهبان ، وحلقات الذكر فى المساجد •

اذا أراد الاسكندرالمقدونى أن يضمها الى امبراطوريته فليقطع الصحراء الى معبد كهنتها ليرسموه باسم آمون الها••وليتقبل صاغرا طعنهم فى شرف أمه ، ويعترف بعدم نسبته لأبيه فيليب •• لأن كهنة مصر أعلنوا أنه ابن لحظة غرام ــ بين اله المصريين وأمه ــ وقعت فى قصر أبيه •

ونسبه هذا هو سبيله الوحيد لكى يتوجه المصريون برضاهم ملكا عليهم ويدخلوه فى تاريخهم •

أما قمبيز فيستطيع أن يحتل مصر ، وأن يقتل العجل الذى يعبده المصريون •• ولكنه يضل الطريق ، ولا يصل أبدا الى معبد آمون •

وعندما جاءت روما •• انتحرت ملكة مصر حتى لا تسير فى موكب السبايا •

ولكن روما تريد أن تفرض التبعية على مصر •

وروما الوثنية يمكنها أن تضم الى متحف الآلهة فى المتروبوليتان بضعة تماثيل لآلهة مصرية لتدور مصر فى فلك روما •

فماذا تعمل مصر لتنجو بروحها ؟•

تتنصر •

تترك آلهتها ومعابدها •• أقدم المعابد •• وأقوى آلهة• تتخلى مصر عنهم •• لأنهم تخلوا عن مصر •

تنصرت مصر •

وبدأت المعركة •• آباء الكنيسة •• أجدادى •• حماة مصر وروحها• •خاضوا معركة باسلة ووحشية ضد التبعية لروما الوثنية•

كل شـــهيد منهم دماه دمائى •• وآلامه آلامى •• لأنه كان يقاتل دفاعا عن روح مصر •• وضد أن تفرض على مصر التبعية •

روما الوثنية لا سلطان لها على مصر •• ومصر النصرانيـــة لا تدين لروما بالولاء •

ولكن روما تتنصر ، فماذا تفعل مصر ؟••هل ترضى أن تكون الكنيسة فى روما •• وليس لمصر الا أسقف تابع ؟!

لا •• لتنشق الكنيســة •• وليكن لمصر بطريركها ، ولتبق روحها مستقلة ، فلا تخضع أبدا لسلطان أجنبى •

وتقــاتل مصر القبطيـــة روما المسيحية •• وتسيل الدماء •• ويرتفع الى سماء المجد آلاف الشهداء •

يفر آباء الصحراء الى أديرتهم •• نائين بروح مصر عن أن تحركها سلطة خارجها •

ذلك هو التفسير الوحيد لترحيب نصارى مصر بالجيش العربى المسلم ، واللقاء الأخوى بين عمرو بن العاص وبنيامين بطريرك مصر النصرانية .

لم يحس أقباط مصر أن الجيش العربى ، جيش غاز ، أو أنهم ينتقلون من سلطان الى سلطان ، وليس المجال هنا بمجال الحديث عن عروبة مصر قبل الاسلام ، واثبات أن مجىء عمرو بن العاص ، الذى لم يكن الأول بالنسبة لعمرو ، لم يكن أيضا بالنسبة لجيشه الا واحدة من سلسلة هجرات عربية الى وادى النيل قبل الاسلام وبعده .

ومع الجيش العربى تحررت روح مصر .. استقلت كنيستها الى الأبد .

أما الاسلام فهو لا يعرف التدرج الكهنوتى .. فليس فيه أن مفتى بغداد أجل قدرا من مفتى القاهرة ، لمجرد أنه يقيم فى العاصمة السياسية .

أحست مصر ، بمسلميها ونصاراها ، بتحرر روحها .. وغيرت مصر لغتها ، وتلت الانجيل بالعربية ، واعتنقت غالبية شعبها الاسلام .. ولم ترق فى هذا التغيير قطرة دم واحدة .. بينما احتلها الأتراك ٤٠٠ عام ، فلم تغير حرفا من لسانها .. ولم تحس نحوهم الا بالاحتقار .

وهكذا نرى أن اعتزازنا بمصر العربية المسلمة ، لا يعنى أبدا اغفالنا لعظمة النضال الذى شنه آباء الكنيسة المصرية ضد روما وبيزنطة •

بالعكس •

اننا ندين لهذا النضال النبيل بحماية مصر من الفناء فى روما ولولا هذا الكفاح الذى حمى جوهر مصر وأبقى على تميزها ، ما كان يمكن أن تقوم مصر العربية الاسلامية •

الذين قاتلوا دفاعا عن مصر القبطية قبل وصول جيش عمرو ، الذى حمى كنيستها من الخضوع لروما ، هم الآباء الشرعيون لمصر العربية الاسلامية •

القضية اذن ليست فى اسم مصر •• بل فى روحها •

ورغم نبوءة شبيو فى ختام مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض[1] • فان أحدا من غزاة مصر لم يحاول أبدا أن يمنع اسمها •• وان حاولوا سحق روحها •

وانطلاقة الروح الحقيقية لمصر ، هى اليوم ، فى عروبتها •• بقيام الوحدة العربية ، بقيام الجمهورية العربية المتحدة ـ من المحيط الى الخليج ـ يتحقق الوجود المصرى ، وان اختفت كلمة مصر ••

---

(١) ص ١٢٦ •

لأن العروبة هى الوجود الوحيد الممكن لمصر .. ولأن مصر فى العروبة لا تنتمى ولا تتبع .. بل تحقق ذاتها وتحررها .

وآبا نوفر القـــديم .. آبا نوفر الذى قاتل روما ، وجاء من أعماق الصحراء حيث كان مختبئا ، ليرحب بأخيه عمرو بن العاص، لا يمكن أن يعارض الوحدة العربية ، بل تبتهج روحه الخالدة وهو يرى علم مصر بهلاله ونجومه ، العلم الذى يحبه ونحبه ، وفديناه بالأرواح ، ستقر روحه كما قرت نفوسنا ، ونحن نرى هذا العلم يتنحى ليفسح مكانا أعز وأرفع لراية أكبر ..

هى راية العروبة .

لأن آبا نوفر عصر الشهداء قاتل روما الكاثوليكية ، ضـــد التبعية لروما .. فنحن معه..ولأن أبا نوفر الآخر المسمى بالجنرال يعقوب عمل فى خدمة الغازى القادم من باريس .. فنحن نلعنـــه ونلعن كل أبا نوفر يبشر بالتبعية الفكرية،ويفتح ثغرة فى حصوننا للغزو الفكرى .

وننتقل الى الجنرال يعقوب .

.. والجنرال الخائن !

« ديسيه !! ديسيه !!

انهم يقيمون لك أثرا فى فرنسا •

فيعقوب الذى كنت تحبه ويعزك كنفسه ، سيدفع ثلث نفقات ذلك الأثر بمفرده بالغة ما بلغت •

واذا بقى هذا الأثر شاهدا بأخبـــار الوقائع والحروب التى خضت غمارها لاسترجاع الصعيد من أيدى المماليك واخضاعه •• فسيعلم الخلف منه أن يعقوب حارب الى جانبك ، واستحق اجلالك واعزازك ، وقد أخلص لك ووهبك فؤاده من زمن مضى » •

هذا الغزل••بل الوله المخنث••كتبه المعلم يعقوب أو الجنرال يعقـــوب يخاطب روح ديسيه القـــائد الفرنسى الذى فتح الصعيد وأغرقه فى الدم •

وهـــذا اليعقوب هو الذى يجعله الدكتور لويس عوض أول

من نادى باستقلال مصر •• وذلك فى محاضرات للدكتور بمعهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية !

والجنرال يعقوب هو الذى كون فيلقا لضرب الشعب المصرى، ومعاونة الاحتلال الفرنسى ، ثم خرج هاربا مع جيش الاحتلال ، ومات على ظهر السفينة ، فوضعوا جثته فى برميل من الروم لينفذوا آخر وصاياه الشاذة ويدفنوه مع ديسيه !

كان فى خدمة المماليك••ثم فى خدمة أغا الانكشارية سليمان بك •• « فلما آنس فيه الشجاعة ، وظهرت له قوته واستعداده ، قدمه الى نابليون ، وأطرى له اخلاصه فقربه هذا اليه[1] •

« وقد نهض يعقوب وحده بأعباء تموين الحملة (حملة ديسيه على الصعيد) والجيوش المتفرقة على طول النيل » •

« ومن أعمال يعقوب الحربية مع الفرنسويين ، أنه كان ذات يوم سائرا فى طليعة الجيش الفرنسوى الذى يتحسس مكان العدو •• وكان ممتطيا جوادا مع الفرسان » •

« كتب الجنرال مينو الى بونابرت كتابا فى ١٠ بروميير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتى : انى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة ، اسمه المعلم يعقوب ، وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة ، ومنها تعزيز قوة الجيش بجنود اضافية •• لمساعدتنا » •

---

(١) الجنرال يعقوب (كتيب) •

ويعلق شفيق غربال :

ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات الاحتلال ، وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها .

والجبرتى يقول أن الفرنسيين هم الذين شكلوا هذا الفيلق ، وأرسلوا فى طلب الافراد له من الصعيد .

ويحكى الجبرتى « وفى خامس عشر ، سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية الى جهة الصعيد وكبيرهم ديزه ، وصحبهم يعقوب ، ليعرفهم الأمور ، ويطلعهم على المخبآت [1] .

هو ، كما ترى ، رجل يعمل فى خدمة الحكام ، تناقلته أيديهم من الانكشارى الى المحتل الفرنسى الجديد .. حيث نبغ فى العمالة ، وتفنن فى التنكيل بالشعب .

والعمل فى خدمة الفرنسيس خيانة .. شرط أن نسلم بأن الوجود الفرنسى فى مصر كان احتلالا واستعمارا .

فلماذا رأى الدكتور لويس عوض فى يعقوب بطلا وطنيا ..؟

لأنه ببساطة يرى أن الحملة الفرنسية هى التى بعثت القومية المصرية ، وهى التى أقامت فى مصر ، ولأول مرة ، مجلسا مصريا للوزراء وأول برلمان مصرى ! ومعها كان ظهور بداية الديموقراطية

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٥ .

نظريا وعمليا ، بل ويسمى البيـــان الذى تلى فى الديوان .. أول وثيقة مكتوبة بين الحاكم والمحكوم ، لأول مرة فى بلاد لم تعــرف الا الحكم الشخصى طوال قرون الترك والمماليك .

هذا بالرغم من أن الدكتور قد شهد فى الصفحات السابقة بأن المصريين ثاروا على المماليك والوالى التركى قبل الحملة الفرنسية ، واستطاعوا انتزاع وثيقة مكتوبة ، فرمن عليها الباشا ، ووقع عليهـا ابراهيم ومراد .

ولم يفت الدكتور أن يصفها بأنها الأولى أيضا !

ويلاحظ الدكتور أن تلاوة فرمان الشروط هذا .. فى أول جلسة عقدها ، ما يسميه بالبرلمان المصرى ، كان بمثابة « اعـــلان لدستور البلاد وفيه معنى ارتباط الحاكم أمام نواب الشعب بأصول الحكم . أو فيه معنى الميثاق » (!!)

وعندما يتلى على أعضاء الديوان انتصارات جيش الاحتلال فى أبى قير لهدف لا يخفى على أحد . يسمى الدكتور ذلك « تأكيـدا لمسئولية الجيش أمام البرلمان » .

مسئولية نابليون أمام الشيخ الشرقاوى !!

وهو يرى أن نابليون كان يحـــاول أن يقضى على كل نفوذ أجنبى فى مصر ببعث الروح القومية فى المصريين .

بينما يروى لنا الجبرتى انهم قالوا « ان مملكة مصر صـارت

فى حكم الفرنسيس لا يشركهم غيرهم فيها •• هكذا قالوا وقرأوه فى ورقة فى الديوان » •

وعندما يقتل سليمان الحلبى «كليبر » ، يشيد الدكتور لويس عوض ، بالمحاكمة التى تمت ، بل ويعتذر عن ضرب المتهمين ليقروا ، متعللا بأن تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم ، كان هو العرف فى مصر أيام الترك والمماليك •

وهو نفس الاعتذار الذى أوردته مضابط المحكمة العسكرية الفرنسية ، وهو اعتذار واه •• فأين اذن حضارة الحرية والمساواة •• وهل جاءت لتحمى هذا العرف وحده ؟!•

وفات الدكتور أن يعتذر عن استخدام أبشع طريقة اكتشفها البرابرة أو التتار ، ونفذها الفرنسيون فى القرن التاسع عشر ضد متهم سياسى •• حرقوا يده حيا •• ثم أعدموه على الخازوق•وهو جهاز رهيب ينفذ فى أحشاء الضحية بوصة بوصة •

وبدلا من أن تخفق قلوبنا بالاعجاب للبطل الخالد سليمان الحلبى قاتل كليبر قائد جيش الاحتلال••يريدنا الدكتور أن نعجب بعدالة المحكمة •• عدالة من ينتزعون الاعترافات بالضرب •• ويحرقون الجسم الحى ، ويقتلون الناس على الخوازيق !

ويفسر الدكتور تاريخ الصراع فى أثناء الحملة الفرنسية•• بأن قوتين أجنبيتين كانتا تتصارعان •• الفرنسيون ضد الأتراك •

الجانب الأول كان يحمل مبادىء الثورة الفرنسية ، ويسعى لايقاظ القومية المصرية ، ويرسى قواعد أول برلمان ودستوروبجلس وزراء •• ويسعى الى اقرار المساواة أمام القانون ، وادخال المدنية، وتحويل مصر الى دولة بورجوازية •• بل ويصف مشروع انشاء دواوين فى البـــلاد بأنه « بالغ الخطورة » وهو أن أول جمعيـــة تأسيسية عقدت فى مصر أوصت أولا بنظام حـكم متقدم فى الحكم المحلى ، مما كان سينقل الفكرة النيابية الى أعماق البلاد ويبثها فى كل أرجائها »[1] •

أما الجانب الثانى فيختص بكل الموبقات والصفات الكريهة •

ثم يقسم زعماء مصر الى فريقين •• فريق يقاتل ـ بدافع من معتقداته ـ الاحتلال الفرنسى تحت راية الترك •• وفريق يقاتل ـ بدافع من معتقداته أيضا ـ تحت راية الفرنسيين •

يقول الدكتور : « وهكذا دفعت عمر مكرم معتقداته أن يقاتل الفرنســـيين تحت اللواء العثمانى والمملوكى •• ودفعت يعقـــوب معتقداته أن يقاتل العثمانيين والمماليك تحت اللواء الفرنسى»[2] •

فى الجانب الأول •• الســـيد محمد كريم وعمـــر مكرم والمحروقى وحسن طوبار وسليمان الحلبى••وكل الذين تعلمنا أن

---

(١) ص ٣٨ •
(٢) ص ٧٣ •

نرى فيهم أبطال تاريخنا لأنهم أبطال مقاومة الحملة الفرنسية .. الى أن ألقى الدكتور محاضراته فى معهد الدراسات العربية ، هذه المحاضرات التى لم تجمع بين القاتل والقتيل فى كيس واحد كما يقال .. بل جمعت الخيانة والشرف معا .

وفى الجانب الآخر .. الجنرال يعقوب وفرط الرمان .

وهكذا يضعنا الدكتور ، كما يظن ، بين المطرقة والسندان ، فاما أن نغفر ليعقوب تعاونه مع المحتل الاستعمارى ، وضربه الشعب المصرى ثم فراره . واما .. فكما تدين تدان .. نتهم عمر مكرم بالخيانة والتبعية لتركيا !

بل ان الدكتور لا يضع الاثنين فى كفة واحدة كما يبدو .. فما دام الفرنسيون يمثلون الجانب الأفضل .. فان المتعاونين معهم كانوا مع التطور .. مع التاريخ ، مع بعث القومية .. ومن ثم فان كبير المتعاونين يعقوب .. هو حامل لواء مصر للمصريين .. حامل بذور القومية المصرية .. صاحب مشروع لاستقلال مصر ..سافر الى أوروبا ليدافع عنه..ومن ثم يستحق أن يوضع فى صف واحد ـ كما يقول الدكتور ـ مع محمد على،وعلى بك الكبير،وعبدالناصر! لأنهم جميعا كانوا أدوات فى يد هذا الشعب العظيم [1] .

---

(١) ان الحكم الموضوعى يقول ان الجنرال يعقوب ومحمد على وكل قائد أو زعيم شارك بجهده فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على بك الكبير الى جمال عبد الناصر كانوا مجرد أدوات فى يد هذا الشعب العظيم ص ٧٧ .

وحقا .. كان يعقوب أداة .. ولكنه لم يكن أبدا في يد هذا الشعب العظيم ، بل في يد جيش الاحتلال ، لضرب هـذا الشعب العظيم وابتزاز أمواله .

ووجهة نظرنا .. أن الحملة الفرنسية لم تكن الا غزوا استعماريا ، ليس مبعثه نشر مبادىء الثورة الفرنسية ، بل حلقة فى مأساة الغزو الغربى الصناعى ، للشرق المتخلف .. فالدكتور نفسه يروى كيف كان قناصل فرنسا الملكية يتصارعون مع بريطانيا على ربط مصر بمعاهدات ، قبل الثورة الفرنسية .

والحملة الفرنسية كانت تشكل خطرا على وجودنا ، وعلى قوميتنا .. خطرا كان من الممكن أن يصيبنا بأضعاف المتاعب التى عانتها الجزائر التى احتلتها فرنسا بعد ذلك بثلاثين عاما .

كان من المحتمل جدا ، لو استقر الاحتلال الفرنسى ، أن يصاب تطورنا القومى بضربة قد تعطله لأكثر من قرن ، أو أن تشوهه ، كما حدث فى العديد من البلدان التى ابتليت بالاحتلال فى مراحل مبكرة من تكوينها أو نهضتها .

لقد استطاعت مصر أن تحمى جوهرها العربى خلال الاحتلال البريطانى لأنه تأخر قرابة القرن .. حتى اكتملت مقوماتها ، وتخطت مرحلة الطفولة التى تصاب فيها الأمم بشلل الاطفال .. اذا ما احتلها المستعمر فى فجر حياتها .

والفضل الاول فى تجنيب أمتنا هـــذا المصير ، يرجع للوعى الصادق الذى حرك جماهير شعبنا للقتال ضدالفرنسيين ، من شمال الدلتا الى أقاصى الصعيد ، فى حرب وطنية شاملة •• لا نبالغ ان قلنا انها لم تتوقف يوما واحدا ••

وكان الثمن ، عشرات القرى أحـرقت بوحشية لم يعـرفها التتار •

ومئات الالوف من الشهداء •• وملايين من الفرنكات الفضة والذهب •

الحس الصادق لشعبنا ، وغريزته التى لا تخطىء أبدا ، دفعاه الى أن يهب لصد الخطر الأكبر على وجوده ، المتمثل فى الاستعمار الأوروبى •• رغم الفحش التركى •

بل نستطيع القول أنه ما من احتلال أجنبى قد جوبه فىتاريخ مصر الطويل بمثل هذا الرفض الاجماعى والمقاومة الشاملة العنيفة• فقد كان احتلال مصر فى هـذا الوقت المبكر خطرا على وجودها ، وبالذات لأن الاستعمار الفرنسى يقوم على سياسة الدمج والفرنسة ، بمعنى استئصال العروبة والاسلام ، لا المساواة القومية •

ولقد احتلت فرنسـا الجزائر مائة وثلاثين عاما •• فهل بعثت فيها قومية ، أو خلقت فيها نظاما ديموقراطيا ؟!• فلماذا نفترض هذه النوايا لاحتلالها القصير فى مصر من مجرد مشروعاتها وبياناتها التى يصفها الجبرتى ، وبحق ، بالتمويه والضحك على العقول ؟! والتى

تلقى الضرورة العسكرية عليها ظلا من الشك لا يخفى على أحد •

بل لعل أحدا لم يذكر المصريين بتبعيتهم للباب العالى ، ويصر على تأكيد هذه التبعية مثلما فعل نابليون فى بياناته ومنشوراته •• بل تنافس مع مراد بك وابراهيم بك فى اثبات الولاء لحضرة «سلطان السلاطين » •

« ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائما يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين ، وطبيعتهم أحباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته » [1] •

ويمنون على المصريين بأنهم أبقوا على « علقة » الدولة العلية•

هذه الدولة التى كان الشعب يرى ممثلها أضعف من الألعوبة بين يدى المماليك •• يرسلون له أبو طبق فيطوى البساط أمامه ويقول انزل يا باشا !•

فينزل الباشا ولا يطمع فى أكثر من النجاة بروحه الى اسطمبول •• حيث يبلغ سلطانه أنه خلع ، فلا يملك الباب العالى الا أن يرسل للمماليك باشا آخر •

هذه الدولة ، التى أذلها وهزمها على بك الكبير ، وأعلن استقلاله قبل الغزو الفرنسى بربع قرن •• والتى قاتل المماليك ، ثم الشعب ، ممثلها ، فور الجلاء الفرنسى •

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١ •

الاستقلال بمصرلم يكن اختراعا عجيبا يحتاج الى غزو فرنسى لكى يكتشف •• بل لا نغالى ان قلنا أن كل من حكم مصر واستقر فى منصبه قد فكر فى الاستقلال بها •

والرابطة مع تركيا لم تكن الا قوة يصد بها الغزو الاستعمارى

فمنذ أن ظهرت سفن البرتغاليين عند الشواطىء الاسلامية ، وبدأ عهد الغزو الاستعمارى •• كان لابد للعالم الاسلامى من قوة عسكرية تحميه ضد المدافع الصليبية •• وكان الاتراك هم أقوى عناصر الأمة الاسلامية وأقدرها على القيام بهذه المهمة العسكرية ، فقامت خلافة آل عثمان••واستطاعت حقا بقوتها العسكرية أن تؤخر احتلال الغرب للعالم العربى أربعة قرون •• ولكنها لم تستطع •• أو على الأرجح تسببت فى تخلف العرب،ومنعت وصولهم الى عصر الصناعة •

وكان من المحتوم مع مطلع القرن التاسع عشر أن تنتقل القيادة الى الأيدى العربية ، لتحقق الانقلاب الصناعى ، وتذود عن الشرق خطر الغزو الأوروبى •• وهنا نرى على عكس ما يحدثنا الدكتور •• أن أوروبا المتمدينة هى التى عملت على ابقائنا ضمن السيطرة التركية ، وسحقت أية محاولة جادة لانطلاق العرب نحو التطور الصناعى •

من الخطأ اذن تصوير الصراع بين الغرب وتركيا فى هـــذه

الفترة على أنه صراع بين قوتين اســـتعماريتين تتنافسان على الدول العربية •• مثل صراع فرنسا وبريطانيا مثلا •

لأن الرابطة العثمانية كانت فى أحد جوانبها تمثل أحيانا سداً، ولو واه ، فى وجه الأطماع الغربية ، وهى أيضا تمثل عبئا على الدول العربية بقدر ما تمكن للغزو الأوروبى •

أساطيل أوروبا التى هزمت محمد على لم تشترط عليه أكثر من أن يظل تابعا لتركيا ، وأن يطبق الاتفاقيات والمعـاهدات النافذة فى الدولة العلياء فانهارت مصانعه ، وباع مدافعه خردة •• وانتهت أكبر محاولة جادة لقيام دولة عربية حديثة تلحق بأوروبا فى القرن التاسع عشر [1] •

وأخطر ما فى الاستعمار الغربى فى هذه المرحلة أنه لم يكن يقوم على التفوق العسكرى وحده •• ويكتفى بالجزية وصك العملة والمناداة باسمه على المنابر •• بل فى أنه يقوم على التفوق الصناعى، ومن ثم يحارب ، بل ويحتل دول الشرق ، ليمنع تطورها ، وليبقيها حقلا ومنجما لمصانعه •

القضية اذن ليست فى اكتشاف النظم البرلمانية ، ونظرية فصل السلطات ، ومبدأ مسئولية السلطة التنفيذية أمام التشريعية •

---

(١) هناك أسباب لفشل المحاولة داخل نظـام محمد على نفســه •• ولكن معاهدة هى الأهم •

هذه قضايا ثانوية •• وهى ليست بمعجزة للعقل العربى حتى يحتاج لتعلمها على يد خبراء أوروبا ولو كان الثمن استقلاله !

المشـــكلة هى المصنع •• فهو الطريق الى البرلمان والحرية والاخاء والمساواة •• والهدف الأول للاحتلال الغربى كان منع قيام المصنع فى الشرق••والطريق الى المصنع عندناكان فى قهر نابليون، وطرده من بلادنا ، ورفض خـــداعه لنا ، أو اثارتنا بالظلم التركى لنقبل احتلاله ، فنقضى على كل أمل فى اللحوق بركب الحضارة •

هذه المفاهيم البديهية نراها ، آسفين ، مضطرين الى تكرارها للرد على الدكتور لويس عوض ، على سعة علمه ، بينما لم تغب عن حاسة شعبنا فى مطلع القرن التاسع عشر •

وها هو الجبرتى •• الذى ما أظن أن مؤرخا معاصرا ، مهما حاول أن يدين الحكم التركى ، لن يبلغ مبلغالجبرتى ، ولا يمكن لنفس أن تحمل احتقارا وكراهية مثل الذى حملت نفس الجبرتى، ونطقت به سطور كتابه عن الحكم التركى ، وهو الذى يعلق عـلى الشىء الذى يسميه الدكتور « لويس عوض » دستورا •• فيقول « الى آخر ما سطروه من الكلام ، ولم يعجبنى منه فى التركيب الا قوله (عن الدولة التركية) المفعمة جهلا وغباوة [1] •

وعنـــدما يريد أن يصف وقوع شىء كريه لا مثيل له يقول

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ •

« ولم يقع نظيره ولا فى دولة بنى عثمان »[1] •

الجبرتى الحاقد على الحكم التركى •• والذى كتب أكبر وثيقة تدين هـذا الحكم •• لم يخنه حسه الوطنى ، وهو يؤرخ الحملة الفرنسية ، وهو بصدقه العلمى قد عكس ، بأمانة نادرة ، الشعور الحقيقى للشعب وطليعته المخلصة •

لو أن الصورة التى يقدمها الدكتور لويس عوض ومن سايره فى هذا المنهج كانت حقيقية •• أى : لو أن مصر كانت ترزح تحت نير استعمار تركى ، فجاء الاحتلال الفرنسى مخلصا لها من هـذا النير ، مقدما انقلابا وتغييرا فى الحياة والحكم •• لما كان الجبرتى يبدأ الجزء الثالث بحديثه عن سنة الاحتـلال بأنها هى « أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب »[2] •

شرور ، ومحن ، وخراب ، وأهوال ، وتدمير •

هذا ما رآه المؤرخ المعاصر ، الذى لم يفته تسجيل شاردة ولا واردة مما أثار اعجـابه بالفرنسيين • ولكنه حين أراد أن يلخص

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٦٠ •
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢ •

الحملة الفرنسية كان صادقا ووطنيا فى هذه العبارات : اختلال الموضوع وانعكاس المطبوع وخراب وفتن •

لا أن يرى فيها بعث القومية المصرية ، وتأسيس أول مجلس مصرى للوزراء ، وأول برلمان مصرى فى القاهرة ، وتأسيس مجالس المديريات والمحافظات فى اقاليم مصر عام **١٧٩٨** ، وظهور بدايات الديمقراطية نظريا وعمليا فى التاريخ الحديث •

والجبرتى يعبر عن فرحته بجلاء رسل الديموقراطية النظرية والعملية ودخول ممثلى الدولة العليه فيقول :

« فلما أصبح الخميس خامسه ، اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس ، وهرع الناس للفرجة ، وخرجت البنت من خدرها ، واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الأثمان ، وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفا • فكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وموسما وبهجة وعيدا ، عمت المسلمين فيه المسرات ، ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات ، ودقت البشائر ، وقرت النواظر ، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة ، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ، ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب ، ويلهمهم سلوك سواء السبيل »[٢] •

---

(١) ل • ع ص ٣ •

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ •

ولا يمكن أن تتهم فرحة الشعب والجبرتى بالعصبية الدينية •• فما أظن أن أحدا قد سخر من تمسح الاتراك بالاسلام كما فعل الجبرتى •• ولكنه الحس القومى •• الذى يدرك أن العدو الحقيقى هو الغزو الاوروبى • والفرحة الصادقة التى أحسها الشعب المصرى بخروج الفرنسيس وعودة الجيش السلطانى أسوأ جيوش الأرض وأفحشها سلوكا وخلقا •• هذه الفرحة واعية •• بل انها جديرة بأن تغمر نفوسنا حتى اليوم كلما فكرنا فيما كان سيؤول اليه مصير العروبة ، لو أن نابليون قد استقر فى مصر وتحققت أحلامه فى « تمديننا وتعليمنا الديمقراطية » •• وفعل بنا ما فعله بغيرنا الاستعمار الفرنسى ، بل ما عجز عن أن يفعله كاملا بغيرنا •• لأن مصر نجت من الاحتلال الفرنسى ، وبقيت حصنا للعروبة والاسلام ، لا تذود عن نفسها فحسب ، بل وتحمى عروبة واسلام أشقائها [1] •

هذا ما يجعلنا ننحنى اعجابا وتقديرا لأجدادنا الفلاحين ، « وللذعر والرعاع » فى الحسينية وبولاق ، وقد بذلوا أرواحهم ودماءهم ، وحملوا عصيهم وفئوسهم ، ليقاتلوا الفرنسيين الكفرة •

ونترحم مع الجبرتى على المملوك أيوب بك الدفتردار ،الذى اختص وحده بمنقبة الاستشهاد فى يوم انبابه [2] •

---

(١) لا يمكن ان يغفل منصف دور مصر فى تحرير الجزائر ، بل وفى حماية العروبه كلها •• فماذا يا ترى كان يجرى لو أن مصر تفرنست فى مطلع القرن التاسع عشر •

(٢) ص ٦٦ •

صحيح أن الاتراك هم شر أهل الأرض ، وهو شعبنا الذى قال « ثلاثة خلقن للفساد : القمل والترك والجراد » •• ولكن منذ أن وصلت سفن فرنسا المثلثة الألوان الىالاسكندرية ، تغيرتالقضية تماما •• أصبح لا خيار •• اما أن تبقى مصر مصرية عربية ، واما أن تفنى تحت نير الاستعمار الغربى •

وهنا لا يتردد الوطنى،فالقضية ليست قضية اصلاحات وتمدن •• بل وجود أو لا وجود •

وأوروبا الاستعمارية لم تحمل لنا المدنية ، بل هى التى عاقت تقدمنا ، وشلت تطورنا •• وما كان لنا سبيل للحاق بها الا بقهرها، وابعادها عن بلادنا •

ولا يجوز أن تخدعنا هذه الألاعيب التى أقامتها فى بلادنا ، والتى لاتزيد ، ان لم تنقص ، عن نظم الحكم التى أقامها الاستعمار الغربى فى كل مكان ، بغية تحطيم الجهاز الوطنى الذى يمثل المعارضة رغم تخلفه •

الاصلاحاتالادارية التى يقيمها الاستعمار لا تهدف الى تمدين المستعمرات والأخذ بيدها ، بل تهدف الى تيسير حكمه لها ، وتنظيم واحكام استغلاله لها •

تأمل كيف يروى الجبرتى تشكيل الديوان :

« وفى يوم الثلاثاء عدت الفرنساوية الى بر مصر ، وسكن

بونابرت بيت محمد بك الألفى •• وفى يوم الخميس أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس ، خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان •

« وفى يوم السبت اجتمعوا بالديوان ، وطلبوا دراهم سلفة، وهي مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام ، وتجار الافرنج أيضا ، فسألوا التخفيف فلم يجابوا ، فأخذوا فى تحصيلها »[1] •

الأمر كما ترى شديد البساطة ، ولا داعى لفلسفته ••الثلاثاء عبروا ، والخميس جمعوا المشايخ وشكلوا الديوان ، والسبت طالبوهم بالدراهم ، فسألوهم التخفيف فلم يجابوا •

الديوان اذن ليس الا جهازا يجمع الضرائب والغرامات •• لا برلمان ، ولا مجلس وزراء ولا دستور •• فضلا عن أن تستخدم كلمة ميثاق ••! فهو عبث بالمسميات لايليق ، وتحميل التاريخ ما ليس يطيق •

وفى ملاحظة نادرة الذكاء ، يسجل الجبرتى طبيعة الديوان عندما يقول : « فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس ، فأذنوا لهم بالذهاب »[2] •

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١١ ـ ١٢ •
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٩ •

ألا توحى هذه العبارة « فأذنوا لهم » بأنهم رهائن ؟!

والجبرتى أيضا يروى : « وفيه أهمل أمر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قائد أغا ، فاستمروا يذهبون أياما ، فلم يأتهم أحد ، فتركوا الذهاب ، فلم يطلبوا » .

وعندما كان « ممثلو الشعب » ينجحون فى جمع الاتاوة ، كان سر عسكر لايرسل جنوده « ليشيعوا التفتيش وفى كل يوم ينقلون على الحمير والجمال من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى .. »

« واشتد الأمر بالناس ، وضاقت منافسهم ، وتابعوا نهب الدور ونزل بالرعية الذل والهوان » .

« اشتد أمر المطالبة بالمال ، وعين لذلك رجل يسمى شكرالله (كان يتعاون مع المحتل بدافع من معتقداته ، كما يرى الدكتور) فنزل بالناس منه مالا يوصف ، فيأمر بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر » .

« فاذا فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا مافيه بما احبوا بأبخس الأثمان ، وحسبوا غرامته ، فان بقى لهم شىء أخذوه من حاصل جاره (!!) ونقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال ، وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم » .

لاشك أنه بعث للقومية بطريقة عنيفة يادكتور !

وما الفرق بين النهب والسلب على يد عساكر الهنكار السلطان سليم ، والنهب والسلب على يد محطمى الباستيل جنود نابليون ، ابن الثورة الفرنسية .. ؟! ألأنهم حطموا باستيلهم ، نغفر لهم سلب أموالنا وتحطيم بيوتنا ؟!

شعبنا لم يفرق .. الا بأن الاستعمار الفرنسى هو الخطر الداهم .

وتأمل هذه «النكتة» على حد تعبير الجبرتى :

بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية (بمعاونة الخونة من أمثال يعقوب) جمع سارى عسكر الرهائن .. نواب الشعب .. أعضاء مجلس النواب الأول أو الثانى .. « وجلس سارى عسكر على كرسى فى وسط المجلس ، وقال كلاما طويلا بلغتهم حتى فرغ ، فالتفت الترجمان الى الجماعة ، وشرع يفسر لهم مقالة سارى عسكر ، ويترجم عنها بالعربى ، والجماعة يسمعون ، فكان ملخص ذلك القول أن سارى عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف ألف الى آخر العبارة الآتية » .. ثم يقول للمهدى « واذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة (أى قمع الثورة) ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وايش يكون نفعكم » ؟

وبعد أن ألقى ممثل الحكومة بيانه .. قام من فوره مع

أصحابه الى داخل ، وأغلق بينه وبينهم الباب ، وترك نواب الشعب أعضاء البرلمان يبولون على أنفسهم •

نعم ! •• اسمعوا الجبرتى ••

« فبهت الجماعة ، وامتقعت وجوههم ، ونظروا الى بعضهم البعض ، وامتقعت وتحيرت أفكارهم ، ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئا مذكورا • ولم يزالوا على ذلك الحال الى قريب العصر ، حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان »[1] •

والذى تولى تحصيل هذه « الفردة » المرعبة هو الجنرال يعقوب ، بطل الدكتور لويس عوض •• يقول الجبرتى « وركب سارى عسكر (كليبر) من يومه ذلك ، وذهب الى الجيزة ، ووكل يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء »[2] •

« ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب ، وتكفل بذلك ، وعمل الديوان لذلك ببيت البارودى » !

ليسمح لنا الدكتور أن نروى كيف نفذ يعقوب مهمة « تنظيم مالية البلاد » نقلا عن الجبرتى الذى يرضى شهادته دون تحفظ ••

---

(١) ص ١٠٧ •

(٢) هذه المهمة التى وكلت ليعقوب يصفها الدكتور بقوله : « وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد » •

«وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم ، فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد ، بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فضاق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ومنعوا المسلمين من ركوب البغال ما عدا خمسة أنفار . هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحررون ، وخرجتُ الناس من المدينة ، وجلوا عنها ، وهربوا الى القرى والأرياف » .

« وفى كل وقت وحين ، ويشتد الطلب ، وتنبث العيون والعسكر فى طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم » .

« فدهى الناس ، وتحيرت أفكارهم ، واختلطت أذهانهم ، وزادت وساوسهم ، وأشيع أن يعقوب تكفل بقبض ذلك من المسلمين ، يقلد فى ذلك شكر الله وأضرابه »[1] ..

أهذا تسميه « تنظيم مالية البلاد » يادكتور ؟!

واذا كان الأمر كما تقول : « كانت فرنسا يومئذ فى مقدمة دول العالم فى الفلسفة السياسية والاجتماعية والقانونية ، ومن أكثرها عصرية فى أساليب الادارة والتنظيم ، ومن أرسخها قدما فى العلوم والفنون والآداب والتكنولوجيا ، على حين كانت الامبراطورية

---

(١) ج ٣ ص ١٣٨ .

العثمانية ومماليكها تعيش فى عزلة العصور الوسطى ، وجهالتها وقيمها الاقطاعية التى كان لا يمكن أن تؤسس عليها دولة حديثة[1] •

صحيح! •• ولكن فى النهب والسلب وتحطيم الدور وتحصيل الضريبة بالكرباج ومن الجيران •• لا يختلف كليبر عن خورشيد •• غير أن الأول يعنى القضاء على الوجود القومى والثانى كان يشكل بتخلفه وجهله ثغرة خطيرة ينفذ منها استعمار الأول •

لذلك ثار الشعب على الاحتلال الفرنسى والمتعاونين معه •• وكانت ثورة القاهرة الأولى والثانية ••

ولأن خيانة يعقوب كانت سافرة ، وانحيازه للفرنسيس واضحا فى الثورة الثانية ـ نرى الدكتور يشنع على هذه الثورة ، ويشهر بها ، فيصفها بأنها من البداية حتى النهاية كانت قيادتها بيد الأتراك والمماليك المعسكرين بمشارف القاهرة والمتسللين اليها وعملائهم من المغاربة والغرباء •• يريد بذلك أن يبرر كون يعقوب قد « كرنك بداره فى الدرب الواسع جهة الرويعى ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين ، وتحصن بقلعته التى كان قد شيدها بعد الواقعة الأولى » •

ثورة القاهرة الأولى التى يشهد الدكتور نفسه بأنها ٣ أيام مجيدة !

ولكن يعقوب عميل الاحتلال يتخوف من مواطنيه بعد ثورتهم

(١) ل • ع ص ٢٤ •

الأولى ، فيشيد قلعة ، ويحشـد فيها السـلاح والمقاتلين ، حتى اذا جاءت « الواقعة الثـانية » حول بيته الى قلعـة أو اسفين فى جبهـة الثوار •• وبعـد اخماد الثورة يقـرر كليبر تكوين فيلق لضرب الشعب ، ويعهد الى يعقوب بتشكيله وقيادته •• ويعتذر الدكتـور عن يعقوب ، ولو على حساب التاريخ ، فيقول ان الفيلق قد تكون ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك •

غير صحيح •• لأن الدكتور هو نفسه الذى يعتذر فى مكان آخـر من نفس الكتاب ، فيقـول ان تكوين الفيلق كان رد فعـل لانحراف ثورة القاهرة الثانية الى حرب دينية صريحة ، بل ويبالغ فى الاعتـذار الى حد اتهام هـذه الثـورة بالعنصرية والعمالة •• « والذهب المتدفق من تركيا وانجلترا » !!

من أجل تبرئة يعقوب الذى كرنك ، مكتوب على ابن آدم أن يتهم بالعمالة والتعصب •• أجداده الذين بذلوا أرواحهم فى ثورة القاهرة الثانية !

والثابت أنه لم تكن هناك حرب بين الفرنسيين والمماليك فى هذه المرحلة ، بعـد أن رضى مراد بك بدور التابع ، وبعـد موقفه المخزى من ثورة القاهرة الثانية الذى فضحه الجبرتى •

« وأما مراد بك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا والأمراء بالمطرية ، وكان هو بناحية الجبل ، ركب من ساعته

هو ومن معه ، ومروا من سفح الجبل ، وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور ، وأقام مطمئنا على نفسه ، واعتزل الفريقين ، واستمر على صلحه مع الفرنساوية »[1] .

« ومنها أن مراد بك عند توجهه للصيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة ، وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر »[2] .

وليس من العدل أن تتهم ثورة القاهرة بأنها كانت « حربا دينية صريحة » لمجرد أنها هاجمت يعقوب الذى كرنك .. لأن الثوار الذين هاجموا يعقوب هم الذين أمنوا جرجس الجوهرى وفلتيوس المالطى اللذين ساهما فى الثورة بأموالهما .. وهم الذين نهبوا دار الشيخ خليل البكرى وسحبوه مع أولاده وحريمه وحصلت له اهانة بالغة لأنهم اتهموه بموالاة الفرنسيس .. وهجموا بيت مصطفى أغا مستحفظان لأنه يأوى فرنسيس ، وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر، ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد» .

فلماذا يشوه لويس عوض هذه الثورة التى لم تفرق بين الأديان فى الوطنية والخيانة .. لماذا يتهمها فى محاضرات بمعهد عربى : « تحولت ثورة القاهرة الثانية الى مسرح للمذابح الدينية ، ومرجل للضغائن الشخصية ، فاستبيح فيها كل شىء » .

---

(١) ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ص ١١٣ .

الجبرتى ولو أنه لم يشترك فى الثورة ، الا أنه مؤرخ أمين •• سجل كل مظاهر الضعف فى ثورة يقوم بها سكان عاصمة شرقية فى مطلع القرن التاسع عشر يعاونهم أفسد جند فى العالم•• ولكنه أبدا لم يلعن الثورة ، بل خفق قلبه بحبها •

« ولم ينم ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف »[1] •

أهذه كلمات رافض للثورة ؟!

« وباشر السيد احمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ، كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا ، وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة »[2] •

« وجرى على الناس ما لا يسطر فى كتاب، ولم يكن لأحد فى حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلا عن جزئياته ، منها : عدم النوم ليلا ونهارا ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأقوات ، وفقد الكثير منها ، خصوصا الادهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة »[3] •

شكرا يا مؤرخنا العظيم •• فقد حميت شرف أمتنا من الذى يتهم أجدادنا بالثورة بدافع الذهب التركى والانجليزى !!

---

(١) ص ٩٣ •

(٢) ص ٩٤ •

(٣) ص ٩٨ ج ٣ الجبرتى •

ولما قهرت « ثورة القاهرة الثانية » كما تعلمنا أن نصفها •• و « الحرب الدينية الصريحة » كما يعلم الدكتور لويس أبناءنا فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة •

بعد أن قهرت الثورة ، أو الفتنة كما يرى الدكتور ، تولت أمة الحرية والمساواة والاخاء تطبيق الديموقراطية عمليا بعد أن طبقتها نظريا ••

يقول الجبرتى « وقاتل أهل بولاق جهدهم ، ورموا بأنفسهم فى النيران ، حتى غلب الفرنسيس عليهم، وحصروهم من كل جهة، وقتلوا منهم بالحرق والقتل ، وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق، وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة •• والذى وجدوه منعكفا فى داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه •• فحبسوا البشتيلى بالقيلة ، والباقى ببيت سارى عسكر ، وضيقوا عليهم حتى منعوهم البول • وفى اليوم الثالث أطلقوهم ، وجمعوا عصابة البشتيلى من العامة ، وسلموهم البشتيلى وأمروهم أن يقتلوه بأيديهم »[١] •

الدكتور لويس عوض يريدنا أن نلعن أبطال بولاق ، أو حتى أن نغفر لهم أنهم بدافع العصبية الدينية قبلوا الموت والهلاك ••

---

(١) ص ١٠١ ـ ١٠٢ •

وأن نشيد بيعقوب ، الذى « كرنك » بداره ، وقاتل مع الفرنسيين، وكون فيلقا لضرب الشعب .

والدكتور يحاول أن يجعل موقف يعقوب مشابها لموقف المشايخ الذين قبلوا عضوية الديوان مثلا .. والفرق كبير بين « من هو فى القبضة مأسور » كما يقول الجبرتى .. وهم المشايخ الذين قبلوا عضوية الديوان أو المناصب التى اخترعها المحتل بدافعين :

◆ الأول .. هو حماية الرعية من التنكيل والابادة ، ومنعا لتصدى من تحركهم الأحقاد فى حالة المقاطعة الوطنية للسلطة المحتلة .

◆ والثانى .. هو الضعف البشرى الذى يحتم مداراة القوة الغاشمة التى لا سبيل الى دفعها .

والفرق واضح بين من يقبل عضوية الديوان ، أو حتى يبرق مهنئا الى فرنسا تحت تأثير الارهاب والضغط ، ولكنه لا يتردد فى القاء شعار الثورة الفرنسية متأففا .. أو يحمل «الوردة» (شعارهم) اذا دخل على الحكام ويخلعها اذا خرج مستغفرا .

وبين الذى يقبل تكوين جيش لضرب مواطنيه ثم يتبرع بثلثى نفقات اقامة تمثال لأحد قادة جيش الاحتلال ، ويتمنى أن يدفن معه فى قبر واحد .

وعندما تقرر جلاء الفرنسيس اقترح يعقوب أن تلجأ فرقة

فرنسية الى النوبة وتدعى العصيان ، ثم تعود لاحتلال مصر بعد جلاء الانجليز !•• ولعله بذلك كان يسبق مخطط منظمة الجيش الفرنسى السرية فى الجزائر بقرن ونصف قرن !

وفى النهاية يخرج مع فلول الجيش المهزوم من البلد الذى خانه •• وعلى بارجة انجليزية ركبها يوم ١٠ أغسطس ، ويوم ١٢ أصيب بالحمى ، ويوم ١٦ أغسطس مات وآخر كلماته أنه يريد أن يدفن مع ديزيه •• « فوضعوا جثته فى برميل خمر ونقلوه الى مرسيليا » •

ومن برميل الخمر تنطلق « حكاية » تزعم أنه على ظهر البارجة البريطانية فاجأ القدر ودخل التاريخ بأول مشروع لاستقلال مصر •• !

متى ؟! •• يقول الدكتور قبل اصابته بالحمى ؟ أى فى ٤٨ ساعة كانت السفينة تتأهب فيها للرحيل بجيش معاد منهزم !! أى وقت جميل لبحث مشروع دولى ؟••ولماذا لم يعرضه على الفرنسيين خلال ٣ سنوات من احتلالهم •• ولماذا لم يذهب الى معسكر القائد العام للجيش البريطانى فى مصر ؟!

وسواء أكان المشروع من اقتراح المجنون عديم الجنسية لاسكاريس ، أم من نمر أفندى ، أم من اختراع الانجليز الذين

نشروا المشروع لأول مرة فى ١٩٢٤ [1] .. مهما يكن مصدر المشروع وصحته .. فهو على أحسن الفروض مشروع لتدويل مصر واقامة حكم طائفى يعيش على اثارة الصراع بين الطوائف ، وبحماية جيش احتلال دولى ، يسميه الدكتور « بوليس دولى بلغة العصر » !

يقول الدكتور « الجنرال يعقوب يرى الحل فى وجود قوة أجنبية مرتزقة فى مصر ، وهى فى نظرة كافية تماما لرد عدوان الأتراك على حدود الصحراء » .

هل كان الخطر على مصر وعلى الشرق من الأتراك.. الرجل المريض .. أم من الاستعمار الأوروبى الزاحف ؟!

والمشروع المزعوم يقول فى خبث : « ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن مصر المقسمة الى طوائف متعددة تتوفر بها الوسائل اليسيرة لاقامة التعارض فيما بين هذه الطوائف فتتكافأ بذلك قواها».

الدكتور يسمى ذلك استخدام توازن القوى !!

ونحن نعيذ نسبة هذا القول الى أى مصرى ، حتى ولو كان طريح برميل الروم .

والمشروع يطلب الحماية من الدول السامية المتعاقدة، ويعرض

(١) فى هذه السنة الغيت الخلافة من تركيا .. وثارت فكرة لاعادتها عربية .. وفى مصر بالذات ..

على بريطانيا التجسس لحسابها ، ويقدم لها شفرة لتستخدمها مع بقايا أعوانه فى مصر..ومن يدرى لعل هؤلاء هم من كانت حملة فريزر تنتظر معونتهم .

والتجسس ليس غـريبا على يعقوب ، وقد سـبق أن كلفوه بانشاء شبكة للتجسس تمتد من مصر الى الشام .

واذا كان الدكتور لويس قد نشر فى كتابه هـــذا المشروع المريب والمشكوك فى أصله تحت عنوان « الوثيقة رقم ١ والوثيقـة رقم ٢ .. فليسمح لنا أن نضيف اليهما الوثيقة رقم ٣ ..

من نمر أفندى لوزير الخارجية الفرنسية تالليران ١٨ صـفر ١٢١٦ « سينزل فى مرافىء الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه عن مصر . والوفد المصرى [1] بالرغم من أنه قد حرم من رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ، ويرى من واجبه أن يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه وهؤلاء المهاجرين فى كنفك » .

فات الدكتور أن يسجل للوفد أنه أول من أدخل نظام اللجوء السياسى فى الشرق .

---

(١) الدكتور يثير ضجيجا حول عبارة « الوفد المصرى » زاعما انها تعنى التطلع للقومية المصرية .. مع أن الجبرتى يسمى المماليك « الأمراء المصرية » وفرعون يقول « أليس لى ملك مصر » .. والثوار الذين حاصروا عثمان بن عفان اسمهم فى كتب السير « المصريون » ! .. فكلمة مصر ومصريين لم تخترع فى القرن التاسع عشر ..

يقــول نمر « واليــوم نرى الجمهــورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجــزت عن تحقيقه ـ اللهم الا الجزء الضئيل منه ـ الملكية الفرنسية المطلقة » •

وأحد أعضاء هذا الوفد انضم الى الجيش الفرنسى وظل به الى أن مات فى ١٨٤١ وأغلب الظن أنه اشترك فى فتح الجزائر •• ومن حقنا أن نتساءل •• ان كان قد سافر لفرنسا سعيا لاستقلال مصر ، فلماذا لم يعد فى عصر محمد على ؟

بئس ما اختار المؤرخ لقومه •• هذا اليعقوب بداية لتطورنا القومى! بينما المعقول هو أن عمر مكرم الذى تزعم مقاومة الاستبداد المملوكى قبــل الاحتــلال الفــرنسى ، هو الذى رفض الخضــوع للاحتلال •• هو الذى قاتل مع المحروقى فى ثورة القاهرة الثانيــة ضد كليبر ولو تحت قيادة الوزير التركى ، وهما معا حاصرا الباشا التركى فى القلعة بعد جلاء الفرنسيين ، حتى خلع وأجبر السلطان على فرمنة من اختاره الشعب •• هو عمر مكرم الذى قاتل الغزو الانجليزى فى رشيد •• وهو الذى تصدى لاستبداد محمد على ••

هذا هو التطور السليم للحركة القومية •• لا أن نفتش عليه تحت أعلام فرنسا ، وفى برميل خمر يحمل جثة خائن فرارى •• هارب من وطنه[1] •

---

(١) لا يفوتنى أن أعترف بأن حكاية يعقوب هذه قد ارتكبت انا خطيئة ترديدها والاشادة به •• ولكن عذرى ان ذلك كان منذ أربعة عشر عاما وكنت لم أبلغ سن الرشد بعد عندما ألفت كتابى الأول « مصريون •• لا طوائف » •

غير أن الجنرال يعقوب ليس الا « الخلفية التاريخية » لما يريد الدكتور لويس عوض أن يحفره فى عقول طلابه بمعهد الدراسات العربية •• وخارجه •• تماما كما كانت الحملة الفرنسية هى المقدمة للغزو الفكرى الذى تتابع منذ وصول نابليون الى شواطئنا ، حتى انتهى الى الاحتلال العسكرى للوطن العربى من المحيط الى الخليج •

فبعد أن نسلم ، مع الدكتور ، بأن الحملة الفرنسية هى بداية تاريخنا الحديث ، وأن كبير المتعاونين معها هو رائد القومية •• !! ينطلق الدكتور فى دراسته لرفاعة الطهطاوى ويقرر لنا :

« ان فكرة الحرية بمعناها السياسى والمدنى فكرة لا تقاليد لها فى المجتمعات العربية ، أو فيما نبع عنها من فلسفة الفلاسفة ، أو فقه الفقهاء ، أو أدب الأدباء ، بل ان مدلول كلمة « الحرية » فى اللغة العربية ذاتها ، مدلول مختلف عن كلمة libertas اللاتينية التى خرجت منها كلمة (ليبرتيه) ومشتقاتها من اللغات الأوروبية الحديثة ، فهى لا تستعمل فى معناها الأصلى فى العربية الا كمقابل للعبودية ••• » [1] •

« وقد اقترن بهذا الوضع اللغوى ، وضع حيوى وهـو أن كلمة (الحرية) لم ترفع أبدا كشعار أو مبدأ أو هدف سياسى أو

---

(١) صفحه ١٢٥ •

اجتماعى فى كل ما نشب من ثورات أو حركات استقلالية فى العالم العربى قبل القرن التاسع عشر .. »[1] .

ومن ثم (الحرية) اذن بالمعنى السياسى والاجتماعى الشامل المتضمن فى كلمة libarias نتيجة لاتصال العرب بالحضارة الأوروبية وبالفكر السياسى والاجتماعى الغربى فى القرن التاسع عشر »[2] .

شكرا يا دكتور ..

هذا هو ما نعنيه (بالغزو الفكرى) .. أن تؤمن بأن عدوك الألد هو ولى نعمتك .. أن ينشأ جيل يؤمن بأنه يدين بتعلم الحرية لأوروبا .. لا أنه فقد الحرية بسبب أوروبا ، التى احتلت بلادهم وقضت على حريتهم ..

لا ..

الدكتور يعلم الطلبة العرب .. أن الجزائر عرفت الحرية يوم الاحتلال الفرنسى لها .. ومصر يوم احتلال فرنسا ثم فقدتها الى أن عادت لها على بوارج « سيمور وش القملة »[3] .

الدكتور يعلمنا أن أوروبا هى التى علمتنا الحرية .. الحرية التى لم نعرفها ، ولم نثر من أجلها .. بل عجزت لغتنا عن أن تجد

---

(١) صفحة ١٢٦ .

(٢) صفحة ١٢٦ .

(٣) قائد الأسطول البريطانى سنة ١٨٨٢ .

لفظا لها .. تماما كما تعجز لغات الشعوب البدائية عن العد ، فتقول على ما جاوز العشرة .. كثير !

وهل بعد ذلك من استسلام للغزو الأوروبى .. ؟! أن يقوم فينا من يؤمن ويعلم بأن أوروبا علمتنا الحرية .. وهل بعد ذلك من ظلم وافتراء على تاريخنا .. ؟!

نحن العرب .. الأمة الوحيدة ـ وقانا الله شر العنصرية التى لايعرفها ديننا ولا خلقنا العربى ـ التى مارست الحرية[1] كحق طبيعى لا يقبل المناقشة ولا يحتاج الى اقرار أو استصدار قانون ..

نحن العرب .. أمة تعاتب الملك الجبار ، اذا صعر خده للناس ، بسيوفها .

أمة كان رجلان من عامتها يتراهنان على التعريض بأرداف أمير المؤمنين فى المسجد !

أمة منها أبو مريم السلولى .. مسلم ارتد ، وقتل فى ردته الشهيد زيد بن الخطاب ، ثم أسلم فحمى الاسلام دمه وماله .. ويدخل على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأقوى حاكم فى عصره. فلا يخفى أمير المؤمنين عواطفه، ولا يتظاهر بحب قاتل أخيه ، فذلك ضد طباع البشر .. ونحن لسنا أكثر من بشر .. بل يقول عمر لأبى مريم « والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها .. »

---

(١) سنناقش هذه الفرية بالتفصيل فى كتابنا القادم : « الحرية فى الاسلام » الذى خصصناه لتفنيد مزاعم الدكتور لويس عوض عن الحرية عند العرب .

فلا ترتعد فرائص قاتل شقيق أمير المؤمنين بل يسأله « وهل يمنعنى ذلك حقا من حقوقى » •• فيستعيذ أمير المؤمنين •• « لا والله •• » ويردد الرجل « لا أبالى •• انما يبكى على الحب النساء » •

اللهم لا عنصرية ولا شوفينية • ولكن يصعب على الباحث أن يجد مثلا أعظم من ذلك لخضوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم لارادة القانون لا لعواطف الحاكم ••

أبو مريم وهو يناقش عمر فى حقوقه ، والمرأة تخطىء عمر على المنبر فيبادر بنقد نفسه علنا « أخطأ عمر وأصابت امرأة » •• والمرأة البدوية الأخرى على مشارف المدينة تدعو على عمر أمام رجل غريب لا تعرف من هو •• فيعتذر الرجل عن عمر قائلا « ومن أدرى عمر بكم ؟ » فتجيبه المرأة بأعظم تعريف لمسئولية الحاكم « ويله •• يلى أمورنا ثم يغفل عنا ؟! » فترتعد فرائص عمر من المسئولية ويذهب يعدو ليحمل الدقيق والسمن على ظهره •

هؤلاء جميعا مواطنون أحرار يمارسون الحرية كما يمارس المرء الوظائف الطبيعية •• ليس بحاجة الى مرسوم يؤكد حقه فى التنفس •

ولقد أكبر الكثيرون الحرية الأمريكية التى مكنت معترضا على سياسة كنيدى من أن ينشر فى الصحف اعلانا يطلب القبض على كنيدى !

ولكن منذ أربعة عشر قرنا جاء عبد فارسى يشكر لعمر بن الخطاب ، ولما لم يعجبه قضاء عمر هدد أمير المؤمنين بالقتل •• وفهم عمر التهديد وقال « توعدنى العبد •• » ولم يقبض عليه ، ولا قلعت أظافره ، بل ترك حرا حتى نفذ تهديده •• وكم كانت خسارة الانسانية فادحة بمصرع عمر •• ولكن خسارتها كانت ستكون أفدح لو أن الاسلام، أقر مبدأ اعتقال الناس بالشبهات •• بالعكس هو يدرأ الحدود بالشبهات ••

الأصل فى المجتمع العربى أن الناس أحرار •• بينما بدأت أوروبا القرون الوسطى بأن الناس غير أحرار •• فلم تقم عندنا ارستوقراطية موروثة ، ولا أتباع متوارثون•• ربما لأنه لم يعرف الاقطاع الزراعى فى بلاد العرب ، ولعل ذلك ما أشار اليه الرسول الكريم فى قوله : « ما دخلت السكة (الزراعة) أرض قوم الا ذلوا » •

ثورتنا كانت دفاعا عن الحرية الموجودة أصلا ، وردا لظلم الحكام ، ولو باصرار الفقيه على بيع السلطان •• أما فى أوروبا فكانت للتسليم أولا بأن الناس أحرار •

ويقول الدكتور « ومن أهم المبادىء التى أخذها رفاعة رافع عن فلاسفة التنوير فى أوروبا وعن فلاسفة الثورة الفرنسية ــ فكرة التسامح بوجه عام ، والتسامح الدينى بوجه خاص » •

ما رأيك يا دكتور فى شهادة غوستاف لوبون : « ان العـرب هم أول من آمن بما نطلق عليه حرية الفكر والتسامح الدينى » •

بل ان البعض يأخذ على حضارتنا تسامحها المطلق •

ان حضارتنا هى أول حضارة تقوم على التسامح بين مختلف الأديان والأجناس فى داخلهـا ، والتعـايش السـلمى بين مختلف الدول والنظم •

أول حضارة يحرم دينها قتل الآخرين لمجرد اختلافهم معنا فى العقيدة أو الرأى، وأول حضارة يقوم تشريعها على افتراض الوجود الأبدى للمخالفين فى الرأى والدين ، والقرآن يعلن أن هذا التعدد من مشيئة الله الذى لو شاء لجعل الناس أمة واحدة •• ولكن خلقهم شعوبا وقبائل ، لا لكى تسود قبيلة الله المختارة ، بل ليتعارفوا •

نحن لم نتعلم التسامح من أوروبا •• بل علمناه للدنيا كلها•• وما زالت بحاجة الى أن تتعلم منا المزيد •

أما مالا يعقل ولا يتصور فهو قول الدكتور أن الشيخ حسن العطار تعلم من الفرنسـيين أن الدنيا لا تتعـارض مع الدين ! وأن الطهطاوى وصل الى رفض « نظرية الزهد والنسك وكافة وجوه الرهبانية وما يسمى فى اللغات الأوروبية Monasticism من كتـاب ارزاموس الشهير « دليل الجندى المسيحى » •

« فهذه الحجج التى يسوقها الطهطاوى دفاعا عن المـال وعن

الدنيا تذكرنا بكل ما قاله ارزاموس فى « دليل الجندى المسيحى »٠٠ فارزاموس قبل الطهطاوى استخدم الحجج الدينية ليثبت للعالم المسيحى أن الدنيا لا تتعارض مع الدين ٠٠ وان المال لا دنس فيه»٠

لا ٠٠ لا يا دكتور ٠٠ ليس هكذا يتكلم العلماء ٠٠ ولا أشباه العلماء ٠٠

الاهتمام بالدنيا جزء لا يتجزأ من تعاليم ديننا ٠٠ وعندنا أكثر من نص صريح « لا رهبانية فى الاسلام » ٠٠ « اليد العليا خير من اليد السفلى » ٠٠

وعندما أشاد وفد الأعراب بصاحبهم الذى يقوم الليل ويصوم النهار وسألهم النبى فمن يهتم بحاجاته ٠٠ قالوا فى فخر ٠٠ كلنا٠٠ قال رسول الله « كلكم خير منه » ٠

وعمر ضرب الرجل المتماوت من شدة الزهد قائلا « لا تمت علينا ديننا أماتك الله » ٠٠ وفى ديننا أن « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » بل ذهب بعض المفسرين الى أن القرآن لم يتحدث عن المال الا باعتباره (الخير) أو أنه لم يذكر الخير الا وهو يعنى المال ٠٠

لا يا دكتور ٠٠ الثورة على الرهبانية تعلمتها أوروبا من المسلمين خلال الحروب الصليبية ، فلما انهارت حضارتنا لجأنا الى فلسفة التخلف والانهيار ، واقتبسنا من أوروبا العصور الوسطى المظلمة نظام التكايا والتسول والدروشة ٠

لا يا دكتور ٠٠ فى هذه خانتك البراعة ٠

أما أنت أيها العربى المسلم •• فلا يروعنك تخلفنا •• هذا قضاء التاريخ ، وعقابنا على البعد عن روح حضارتنا وديننا •

وقد جاء دورنا •• ولا بد أن نتعلم علم أوروبا كله ، وأن نصل الى ما وصلت اليه من صناعات وفنون •• فبهذه الآلات قهرتنا وأذلتنا وأشمتت فينا كل حقود لئيم •

ولكن •• ليس بنقل المصانع والآلات تبنى الأمم •• ولا تشاد الحضارات بالاقتباس والتبعية الفكرية ، بل بتحرير الروح القومية• ببعث حضارتنا الزاهرة •

لنكن عربا مسلمين يعيشون فى القرن العشرين •

نحن الذين أصدرنا لائحة الحقوق المدنية قبل الكونجرس الأمريكى بأربعة عشر قرنا •

نحن الذين أعطينا البشرية الكثير •• وما زالت عطشى تنادينا أن نعطيها •

وما زال لك أيها العربى المسلم دور رائع لتلعبه •• لا بالآلات وحدها ، ولا باستيراد المبادىء من الشرق والغرب •• بل برسالة السماء ••

بدين محمد بن عبد الله ••

ابن امرأة كانت تأكل القديد •

يوليو ١٩٦٤

يناير ١٩٦٦

فهرس

الموضوع	الصفحة

استدراك

وردت بالمقدمة بعض أخطاء يجب تصويبها وهى :

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ينطبق	ينطق	هـ	٣
وما	ما	و	١٨
طب علينا	طب عينا	ل	الأخير
إن الذى	من الذى	م	٣
مدون	مدن	ص	٦
لتنفيه	لتتفيه	غ	١٦
تحذف الواو التى قبل السطر الثانى من البيت الأول		ث	

للمؤلف

مصريون لا طوائف

١٩٥٠ (نفد)

***

الجبهة الشعبية

١٩٥١ (نفد)

***

قانون الأحزاب

١٩٥٢ (نفد)

***

روسى وأمريكى فى اليمن

١٩٥٧ (نفد)

***

شرف المهنة

١٩٦٢

***

الماركسية والغزو الفكرى

١٩٦٥

(قريبا الطبعة الثانية)

***

الحرية فى الاسلام

(تحت الطبع)

الدار القومية للطباعة والنشر

هذا الكتاب

- يناقش علاقة الاسلام بالثورة العربية .

- يفنـــد المفاهيم المعادية للاســـلام التى ابتدعتها « ثورة لورنس وورثتها الحركات القومية فى الشرق العربى .

- يرى ان اسلامية الثورة الجزائرية ليست ظاهرة جزائرية بل الوضع الطبيعى للثورة العربية الشاملة .

- يناقش بعض النماذج المتأثرة بالغزو الفكرى الاستعمارى .

- يرى ان الغـــرب يشن الآن حمـــلة جـــديدة فى الحرب الصليبية الأبدية بين الغرب والشرق .

الغلاف تصميم الفنان عزت